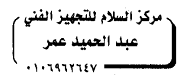
حياة نساء
بيت النبوة والصحابيات
دروس وعبر

تأليف
أ. د. عبد الرحمن عميرة
عميد كلية أصول الدين الأسبق

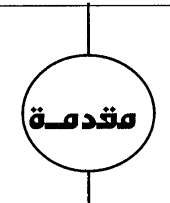


الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٦٣٥١/٢٠٠٧



دار المعرفة للنشر والتوزيع
حارة البيطار- خلف جامع الأزهر
ت: ٠١٠٨٥٨٤٨٢٠ - ٠١٢٨٩٣١٥٩٣



مقدمة

تاريخ المرأة المسلمة في صدر الإسلام وما تلاه من عصور

كانت المرأة قديمًا وحديثًا، وعلى مر العصور وفي مختلف الأزمان – ولا زالت – أمًّا تربي الطفولة، وتصنع الرجولة.

وزوجةً تجمل الحياة ببسمتها الحبيبة، ولمستها الرقيقة، وتخفف من وعورة الطريق، وأعباء العمل بكلمة معبرة حانية.

وأختًا تشارك الأسرة حلو الحياة ومرها.

وأبنةً تملأ البيت هناءً وبهاءً، وتقرُّ بها عين الأبوين.

ولقد وقر في الأذهان أن العرب في الجاهلية كانوا يهينون الأنثى، ويغمضون مكانتها ولا يشركونها في حياتهم العامة.

ولقد ثبت ذلك بما قرره القرآن الكريم من كراهية العرب لولادة الأنثى الأمر الذي جعلهم يتقتلونها طفلة، ويوارونها تحت التراب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

(١) سورة النحل: (٥٨- ٥٩).

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[1].

نعم كان هناك قلة يفعلون ذلك ويفتخرون به، ولكنه لا يؤخذ على أنه القاعدة العامة التي كانت سائدة بينهم، والحكم الذي لا يستثنى منه قبيلة أو مجموعة؛ لأن التاريخ يحدثنا أن الرجل كان شديد الاحترام للمرأة، كثير الحدب عليها، يغار عليها ويحرص على صيانتها.

وكان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغي وألسنتهم رطبة بذكر زوجاتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم، وكانوا يطلبون منهن أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم غمر ات الحروب في سبيل مجدهم ومفاخرتهم.

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر: عنترة العبسي:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وكانت القبائل برمتها، ورجال من أكبر القوم ينتسبون إلى الأمهات وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أنا ابن العواتك من سليم**»[2].

وهو يشير بذلك إلى نسوة من أصوله كل منهن سميت عاتكة، وقد كان لبعض النسوة في الجاهلية أثرهن الكبير في كبريات الأحداث، وهذه معركة ذي قار، وهي من أضخم أحداث الجاهلية، تشب بسبب امرأة أراد بعض الشباب كشف نقابها، وامتازت بعض البيوت العربية بإكرام البنت حتى لا تسمح بزواجها إلا برضاها، كما حدث للخنساء؛ إذ رفضت سيد بني دريد، وسيد بني هوازن وحكيمها لتتزوج من رجل كانت تريده.

---

(١) سورة التكوير: (٨- ٩).

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير) (٦/ ٢٠) من طريق العباس بن الفضل: حدثنا عمرو بن عوف الواسطي حدثنا هُشيم حدثنا يحيى بن سعيد، عن عمرو بن سعيد بن العاص أخبرنا سيابة ابن عاصم السلمي أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين: وذكره.

والعرف العربي كان لا يجوز تعريض النساء للمخاوف والتهديد، ويفرض حمايتهن وفداءهن بالروح، ويحتقر كل من تهاون بصيانتهن أو تردد في الموت دونهن.

وكانت النساء لا يقابلن بالمثل؛ إذا بدأن بضرب الرجال أو إهانتهم كما حدث مع حاتم الطائي عندما مرَّ ببلاد عنيزة في بعض الأشهر الحرة فناداه أسير لهما يا أبا سفانة أكلني الإسار.

فقال: ويحك أسأت إذ نوهت باسمي في غير بلاد قومي، فساوم القوم به، ثم قال: أطلقوه واجعلوا يدي في القيد مكانه.

ففعلوا فجاءته امرأة ببعير ليفصده فقام فنحره فلطمت وجهه.

فقال: لو غير ذات سوار لطمتني – يعني أنه لا يقتص من النساء، واحترام العرب لنسائهم جاء ثمرة نضج الذكورة، وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة.

ووظيفة ربة المنزل من أشرف الوظائف، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار.

قال: يا بنية هذا الحارث بن عوف – سيد من سادات العرب – قد جائني طالبًا خاطبًا، وقد أردت أن أزوجك منه.

فقالت: لا تفعل، لأني فتاة في وجهي ردة[1]، وفي خلقي حدة، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون على ذلك ما فيه.

ثم دعا الوسطى: فأجابته بمثل جواب أختها، وقالت: إني خرقاء[2]، ولست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى ما يكره، فيطلقني فيكون على في ذلك ما تعلم.

---

(١) أي: أنها ليست جميلة.
(٢) الخرق: ضد الرفق: أي أنها متهورة.

ثم دعا الثالثة: وهي أصغرهن فلما عرض عليها، قالت: أنت وذاك، فأخبرها بإباء أخواتها فقالت: لكني والله الجميلة وجهًا، الصناع يدًا، الرفيعة خلقًا الحسيبة نسبًا وأبًا؛ فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير. فزوجها الحارث.

ولما وصل إلى ديار قومه قالت: أتلزم المنزل والعرب يقتل بعضهم بعضًا؟

اخرج إلى هؤلاء القوم، وأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك.

فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم، وحمل الديات، وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنوات.

والمرء يعجب لعظمة هذا البيت العربي زوجة ترشد رجلها إلى الصراط بعدما كاد يزيغ عنه.

وبنات يعرفن بدقة أوصافهن البدنية وطبائع بيئتهن، فيقدمن دون أثرة صغراهن؛ لتكون زوجة لخاطب مقبل.

وعروس تأبى أن تسعد بزوجها حتى تضع الحرب أوزارها، وتقرُّ السلام حولها.

ثم ماذا...؟

جاء الإسلام، وجاءت الرسالة خاتمة الرسالات السماوية إلى البشرية بعد أن وصلت إلى رشدها العقلي.

فقررت أن المرأة جزء من الرجل، وقطعة من كيانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1].

(١) سورة النساء: ١

ورد عنها طغيان القسوة من الرجال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾[1].

وحرَّر إنسانيتها روحًا وجسدًا حين أباح لها أن تتزود من العلم ما تشاء، وحصَّن حقوقها المالية حتى لا تذهب بها أثرة الأقرباء أو الغرباء، **قال تعالى:** ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[2].

وأيضًا قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3].

وجعل دعائم الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة.، **قال تعالى:** ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[4].

ثالثًا: أن يلتزم كل من الزوجين بتعاليم الإسلام تجاه الآخر، وأن يقتدي الرجل بأعمال الرسول ﷺ في بيته، وأن تتبع الزوجة منهج أمهات المؤمنين في معاملة الرسول ﷺ.

ومن الأشياء التي لا تبلي ولا يمكن أن تنسى على مر الأيام تلك الوصية الغالية التي قدمتها امرأة عوف بن ملحم الشيباني إلى ابنتها عندما زفت إلى ملك كندة.

---

(١) سورة النساء: ١٩.

(٢) سورة النساء: ٧.

(٣) سورة النساء: ٣٢.

(٤) سورة الروم: ٢١.

(وصية الأم إلى ابنتها....)

قالت الأم: أي بنية إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه؛ فكوني له أمة يكن له عبدًا، واحفظي له عشر خصال يكن لك ذخرًا.

أما الأولى والثانية: فالصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يشم منكِ إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء والصابون أطيب الطيب.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وحشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التدبير.

أما التاسعة والعاشرة: فلا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنكِ إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت له أمره أوغرت صدره، ثم التوقي مع ذلك الفرح إن كان حزينًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى في التقصير والثانية في التكدير، وكوني أشد ما تكوني له إعظامًا يكن أشد ما يكون لكِ إكرامًا.

وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول لك مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهت، والله يخير لكِ.

هذه الوصية في الحقيقة تعتبر بحق دستورًا للأسرة لو سارت عليها كل فتاة، إنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة في الحياة الزوجية إلا وأشارت إليها، لقد أمرتها بطاعة زوجها، وأمرتها بالمحافظة على ماله والحرص عليه، والرسول ﷺ يقول: **«لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت – عن رضاه – كان لها مثل أجره، وإن أطعمت – بغير إذنه – كان له الأجر، وعليها الوزر»**[1].

وقالت امرأة: يا رسول الله، إنا كل على آبائنا وأزواجنا، فما يحل لنا من أموالهم؟

* * *

(١) رواه البيهقي بنحوه من حديث ابن عمر (٤: ١٩٤) في الزكاة.

نماذج من الحياة في البيت المسلم

قال شريح القاضي: يحدث الشعبي عن زوجته زينب ابنة جرير إحدى نساء بني حنظلة:

فلو رأيتني يا شعبي وقد أقبل نساؤها يهدينها حتى أدخلت علـي؟ فقلـت: من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين، فيسأل الله مـن خيرها، ويعوذ به من شرها قائلاً:

«اللهم إني أسألك من خيرها، وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جبلتها عليه».

فصليت وسلمت، فإذا هي من خلفي تصـلي بصـلاتي، فلمـا خـلا البيـت ودنوت منها، ومددت يدي إلى ناحيتها قالت:

«الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امـرأة غريبـة، ولا علم لي بأخلاقك؛ فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فابتعد عنه.

وقالت: إنه كان لك في قومك منكح، وفي قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان، وقد ملكت فأصنع ما أمرك الله بـه، إمسـاك بمعـروف أو تسـريح بإحسان، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولك.

قال شريح: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلـك الموضـوع، فقلـت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي وأسلم علـى الـنبي وآلـه، وبعـد؛ فقـد قلـتِ كلامًا إن تثبتي عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجته عليك، أحب كـذا وأكره كذا، ونحن سواء فلا تخافي.

والرسول ﷺ يؤكد هذا المعنى بقوله: تنكح المرأة لـثلاث: «**لمالهـا وجمالهـا**

وحسبها ودينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك».

فدعائم الأسرة يجب أن تقوم على الإيمان، لأن الإيمان هو الجهاز الواقي للبيت عن كل ما يثار من اضطرابات وأعاصير، والزواج يقوم على المودة والمحبة، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1].

ومن هذا تظهر الحكمة من هذا الرباط المقدس الذي يقوم على المودة والرحمة حكمة الخالق في خلق كل من الزوجين على نحو يجعله موافقًا للآخر ملبيًا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار؛ لأن تركيبهما النفسي والعصبي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية؛ لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد والأسرة القائمة على الزواج العلني – الذي تخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه، هو أكمل نظام عرفته البشرية؛ لأنه يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية الناشئة من كونه إنسانًا خلق من أجل أجل غاية، وهي أن يكون خليفة الله في أرضه.

وإذا كان الطفل الإنساني يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر، وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والإكثار؛ فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف، وإنما هي تمتد إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الرجل والمرأة، ليتم إعداد الطفل الإنساني وتربيته، وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية التي تؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني، والمشاركة في حمل مسئولياته كاملةً.

---

(١) سورة الروم: ٢١.

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الرجل والمرأة في علم الإنسان، وإنما هي وسيلة لاستمرار حبل الحياة.

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة، هو النظام الوحيد الذي تستمر معه هذه العلاقة، والذي يجعل الواجب، لا مجرد الهوى أو اللذة هو الحكم في قيامها، ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثنائها، ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾[2].

ومن هنا نعلم أن أي تهوين من شأن الأسرة أو تقليل من قيمة الأساس الذي تقوم عليه وهو الواجب، لإحلال الهوى المتقلب، والشهوة الجامحة محله، هي محاولة آثمة لا لأنها تشيع الفوضى والفاحشة والانحلال في المجتمع الإنساني فحسب، بل كذلك لأنها تحطم هذا المجتمع، وتهدم الأساس الذي تقوم الأسرة عليه، كما ندرك مدى الحكمة في قول عمر بن الخطاب ﷺ لرجل أراد أن يطلق زوجته معللاً ذلك بأنه لم يعد يحبها: «ويحك ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية؟ وأين التذمم؟

نعم قولته هذه مستمدة من توجيه الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3]، ويفعل الإسلام ذلك لأنه ينظر إلى البيت بوصفه سكنًا وأمنًا وسلامًا، وينظر إلى

(١) سورة النساء: ٣٥.
(٢) سورة النساء: ١٣٠.
(٣) سورة النساء: ١٩.

العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمةٌ وأنسٌ، ويقيم هذه الأسرة على الاختيار المطلق، كي تقوم التجارب والتعاطف والتحارب.

الترغيب في الزواج

يقول الله تعالى: ﴿**وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]، والأيامي: أي الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله: أي لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجال والمرأة.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة كلهم حق على الله عونه. المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والكاتب يريد الأداء**»[2].

وهذه الآية دليل على تزويج الفقير، ولا يقول كيف أتزوج، وليس لي مال؛ فإن رزقه على الله.

وقد زوَّج النبي ﷺ المرأة التي تهب نفسها له لمن ليس له إلا ثوب واحد.

وقال الله تعالى في وصف الرسل ومدحهم على الزواج بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾[3].

وهذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهي عن التبتل وهو ترك الزواج، وهذه سنة كما نصت هذه الآية.

وقال الرسول ﷺ: «**من تزوَّج فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الثاني**»[4].

---

(١) سورة النور: ٣٢.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في سننه.

(٣) سورة الرعد: ٣٨ يقال إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الزواج، وقالوا لو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن النساء فأنزل الله عند ذلك الآية.

(٤) الحديث رواه ابن الجوزي في العلم، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٣٩).

ومعنى هذا أن الزواج يعفُّ عن الزنا، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن الرسول ﷺ عليهما الجنة؛ فقال: «**من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة: ما بين لحيته، وما بين رجليه**»[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ؛ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: «أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثالث: أنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبدًا فجاء رسول الله ﷺ وقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2].

وقد مدح الله سبحانه تعالى أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء؛ فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ**﴾[3].

وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدين والدنيا لم يلتفت إلى زوج أحد، ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما تراه، فذلك حين قرة العين وسكون النفس.

وأحاديث الرسول ﷺ في الترغيب في الزواج أكثر من أن تحصى، من ذلك قوله ﷺ: «**تناكحوا تكثروا؛ فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**»[4].

---

(١) رواه صاحب الموطأ.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم بمعناه، وأخرجه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح بسنده عن أنس بن مالك، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، وذكره رقم (٥٠٦٣).

(٣) سورة الفرقان آية: ٧٤

(٤) الحديث رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر.

وقوله ﷺ: «**من سنتي النكاح؛ فمن أحبني فليستن بسنتي**»[1].

وقولـه ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته؛ فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[2].

ومن الآثار قول عمر بن الخطاب ﷺ: لا يمنع من الزواج إلا عجز أو فجور «فبين أن الدين لا يمنع الزواج، وحصر المانع في أمرين مذمومين.

وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه، ويبيت عنده لحاجة إن طرقته فقال له رسول الله ﷺ ألا تتزوج؟ فقال: يا رسول الله إني فقير لا شيء لي، وانقطع عن خدمتك إن تزوجت فسكت ﷺ ثم عاد ثانيًا، فأعاد على الرسول ما قاله سابقًا، ثم تفكر الصحابي، وقال: إن رسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي، وما يقربني إلى الله، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن، فقال له ﷺ الثالثة: ألا تتزوج؟!

قال: فقلت: يا رسول الله زوجني، قال: ما تريدون، قد سألت لكم الدنيا والآخرة.

وقال عطاء: حدثني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: وكل بالركن اليماني في الكعبة سبعون ملكًا فمن قال: اللهم إني أسالك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، قالوا: آمين»[3].

❊ ❊ ❊

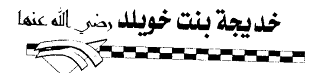
(١) سبق تخريج هذا الحديث.
(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة ورواه الترمذي من حديث أبي حاتم المزني وحسنه ورواه أبو داود في المراسيل.
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات ٥٥ ومسلم في الذكر ٢٣- ٢٦ وأبو داود في الوتر ٣٦ والمناسك رواه الترمذي في الدعوات ٧١ وابن ماجة في المناسك ٣٣ وأحمد بن حنبل في المسندة ٣: ١٠١، ١٠٧.



أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد

رضي الله عنها



خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

حياتها ونشأتها

أم المؤمنين صاحبة الصفاء والنقاء والطهر. كانت أول من نطق بشهادة التوحيد بعد الرسول ﷺ وكفرت بعبادة الأصنام والأوثان.

نشأت في رحاب مكة وبيت الله الحرام، والتقطت أذناها من أبيها خويلد بن أسد وأمها فاطمة بنت زائدة، أسس الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وعرفت مع والداتها مرح الطفولة، وهن يتسمعن إلى شقشقة العصافير عندما يظهر على الوجود ضوء الفجر الوليد.

وكثيرًا ما كان يصحبها والدها إلى بيت الله الحرام؛ فتشاهد الأصنام المرفوعة والأوثان الموضوعة، وجماعات الناس وهم يقدمون لها القرابين، وهي لا تفصح ولا تبين.

خديجة بنت خويلد وفيل أبرهة

تقول خديجة -رضي الله عنها: أيقظني والدي أنا وإخوتي مبكرين، وأخذ يهرول بنا مع المهرولين خارج مكة؛ لنقيم في الشعاب بعيدًا عن غضب الفيل وزمجرته – والذي جاء به أبرهة ملك الحبشة لهدم بيت الله الحرام، وعرفت فيما بعد أن أبرهة طلب سيد قريش عبد المطلب بن هاشم ليقول له: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت؛ فإن لم تعرضوا لنا بحرب، فلا حاجة لنا بدمائكم.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم – فلما رآه أبرهة أجله

وأكرمه ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان.

فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرَّد الملك مائتي بعير لي استولى عليها جنده.

فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير.، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟

قال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه.

قال: ما كان ليمتنع مني.

قال عبد المطلب: أنت وذاك؟

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والاحتماء في رءوس الجبال والمواقع الخلفية منها؛ تخوفًا عليهم من هجوم جيش أبرهة.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو ماسك بحلقة باب الكعبة:

يا رب إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوًا محالك

ثم لحق بقومه الذين خرجوا من مكة، وتركوا ديارهم، وما حوت في رعاية ربهم، ولما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودًا، وأبرهة مجمع على هدم البيت.

فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب، وأخذ بأذن الفيل؛ فقال: ابرك يا محمود أو ارجع راشدًا من حيث أتيت، يا محمود إنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل.

ثم ماذا؟ ضربوا الفيل ليقوم فأبى، واستعملوا معه كل أنواع التعذيب فتحملها صابرًا وأبى، فوجهوه إلى الشام فاشتد عوده إليها، ووجهوه إلى المشرق فاشتد عوده إليها، ثم وجهوه إلى مكة مرة ثانية فبرك، ثم ماذا؟! فكروا في العودة إلى اليمن ولكن رب الحرم لم يتركهم حتى يعودوا سالمين؛ فأرسل عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والزرازير مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجرًا في منقاره، وحجران في رجليه، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك.

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين شرهم.

خديجة رضي الله عنها وتعرفها بمحمد ﷺ

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، وكانت تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، تفعل خديجة ذلك لأن قريشًا كانت مشهورة بتجارتها.

وفي يوم من الأيام بلغها عن محمد بن عبد الله الأمين الصادق ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه.

عندها بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار.

ويرافقه في رحلته هذه غلام لها يقال له ميسرة، فقبل الرسول ﷺ هذا العرض، ثم خرج في مالها ومعه ميسرة حيث قدما الشام.

عندها نزل رسول الله ﷺ من على ناقته، وجلس تحت شجرة، وكانت الشجرة قريبة من صومعة راهب من أهل الكتاب.

فاطلع الراهب من نافذة صومعته وقال لميسرة: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟

قال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي..

ثم باع رسول الله ﷺ تجارته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل راجعًا إلى مكة ومعه ميسرة.

فكان ميسرة يقول: إذا كانت الهاجرة واشتد الحر – يرى ملكين يظلان رسول الله ﷺ من الشمس، وهو يسير على بعيره.

فلما قدم محمد ﷺ على خديجة بمالها وقد باعت ما جاء به من أرض الشام بضعف ما كان يشتري به، ثم ماذا؟!

حدثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين له عند سيره.

وكانت خديجة – رضي الله عنها– امرأة حازمة شريفة راجحة العقل والفكر، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ.

* * *

رغبة خديجة في الزواج من محمد ﷺ

جاء الرسول ﷺ إلى خديجة، فلما جلس أمامها قالت له: «يابن عم: إني قد رغبت فيك لقرابتك وسمعتك الطيبة بين قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك.

ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة في ذلك الوقت من أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً وعزًا، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد، وأمها فاطمة بنت زائدة، من كرام الأسر في قريش، وما جاورها من البلاد والعشائر.

ثم انصرف رسول الله ﷺ بعد أن وعدها خيرًا، ثم عرض هذا الزواج على أعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فارس الفرسان وأكرم الرجال وأشجع الشجعان، ثم دخلا على خويلد بن أسد، وخطبا منه خديجة فوافق على الزواج.

ثم أصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة[1] من الإبل، وكانت خديجة أول من تزوجها محمد ﷺ وغنى، الوجود كله لخديجة، وأصبحت زوجة للرجل الذي عما قريب ستتسمع به الكرة الأرضية كلها عندما يأتيه الوحي من ربه، ويقف على الصفا والمروة، ويقول لآل قريش: إني رسول الله إليكم خاصةً: وإلى الناس عامةً.

وقد ولدت خديجة من زوجها محمد ﷺ: القاسم ثم الطيب ثم الطاهر هذا من البنين، أما البنات فكانت أكبرهن رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة — رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) البكرة: هي الفتية القوية من الإبل.

ولقد أدركت بناته كلهن الإسلام فأسلمن، وهاجرن معه ﷺ إلى يثرب - مدينة الرسول ﷺ.

حديث خديجة مع ورقة بن نوفل:

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد، وكان ابن عمها، وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب، وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب.

فقال ورقة: لئن كان هذا حقًّا يا خديجة، إن محمدًا لنبي هذه الأمة.

وقد سبق أن عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، وهذا زمانه الذي أخبر به الأنبياء من قبله.

حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله ﷺ بين قريش في وضع الحجر



لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنة - اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو فتناول حجرًا، فوثب الحجر من يده حتى رجع إلى موضعه؛ فقال: يا معشر قريش: لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ثم إن الناس هابوا هدمها وخافوا منه.

فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به، فأخذ المعول ثم قام عليها، وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير.

فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر فإن أصيب الوليد لم نهدم منها

شيئًا، ووردناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله صنعنا فنهدمها.

فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله فهدم وهدم الناس معه، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام الذي وضعه، وقد وجدت قريش في الركن كتابًا بالسريانية؛ فإذا فيه: «أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتا بسبعة أملاك حنفاء، لا تزول حتى تزول جبالها، ثم إن قريشًا أخذت في البناء حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى – حتى انحازت كل قبيلة إلى جهة، وتحالفوا وأعدوا نفوسهم للقتال.

ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصحوا، وتناصفوا، ثم قام أبو أمية بن المغيرة وقال: يا معشر قريش:

«اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه؛ ففعلوا».

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ.

فلما رأوه قالوا:

«هذا الأمين: رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلم إليَّ ثوبًا».

فأتى به فأخذ الرجل فوضعه فيه بيده، ثم قال:

لتأخذ كل قبيلة بناحية الثوب، ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا حتى إذا بلغوا به

موضعه وضعه الرسول بيده، ثم بنى عليه.

وهكذا استطاع محمد الأمين – أن يوقف القتال بين القبائل في مكة، وأن يرضي الجميع بحسن التفكير والإلهام من الله، ولهذا كان قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾[البقرة: ٢٨٢] أي يعلمكم الحكمة والتدبير، يعلمكم حسن التعامل مع الآخرين؛ لتكونوا يدًا واحدةً، وصدق ربي في قوله: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(١).

أي: تذهب قوتكم ويذهب عزكم وتكونوا أزلاء ضعفاء أمام عبدة الشيطان، فمتى يعي المسلمون هذا الدرس؟!

متى يكونون يدًا واحدة ضد الباطل وجنوده؟!

متى يقفون صفًا قويًا ضد الفساد والإفساد التي تحاول أن تنال من مقدساتنا؟!

مبعث النبي ﷺ

لما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين بشيرًا ونذيرًا.

وكان الله تعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾(٢).

(١) سورة الأنفال: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران: ٨١.

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: إن أول ما بدئ به الرسول ﷺ الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح.

قالت: وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وكان ﷺ إذا خرج لحاجته أبعد حتى تبعد عنه المنازل، ويفضي إلى الأماكن الخفية من الجبال المحيطة بمكة.

وكان لا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

قالت: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه؛ فلا يرى إلا الشجر والحجارة.

فمكث رسول الله كذلك يرى ويسمع ما شاء أن يمكث، ثم جاءه جبريل الأمين عليه السلام بما جاءه من كرامة الله، وهو بغار حراء في ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[البقرة: ١٨٥].

الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام

قال رسول الله ﷺ: جاءني جبريل وأنا نائم بوعاء من ديباج فيه كتاب، قال: اقرأ.

قلت: ما أقرأ؟

قال: فضمني إليه حتى ظننت أنه الموت.

ثم أرسلني. وقال: اقرأ.

قال: قلت: ماذا أقرأ؟

قال: فضمني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني.

وقال: اقرأ.

قال: فقلت: ماذا أقرأ؟

فقال ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

قال: فقرأتها، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابًا.

قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل».

قال: فرفعت رأسي إلى السماء انظر؛ فإذا جبريل رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال: فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء.

قال: فما أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم ولا أتأخر حتى بعثت خديجة رسولها في طلبي؛ فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني.

* * *

(١) سورة العلق: (١- ٥.)

رسول الله ﷺ يقصُ على خديجة ماكان من أمر جبريل عليه السلام

يقول الرسول ﷺ: ثم انصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست على فخذها ملتصقًا بها.

فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة، ورجعوا إليَّ.

قال: ثم حدثتها بالذي رأيت. فقالت: «أبشر يا بن عم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة».

خديجة بين يدي ورقة تحدث عن رسول الله ﷺ

ثم قامت خديجة فجمعت ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد – وهو ابن عمها – وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ: كأنه رأى وسمع.

فقال ورقة بن نوفل: قدوس، قدوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام وإنه لنبي هذه الأمة.

ثم استأنف حديثه قائلاً: فقولي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله جواره وانصرف؛ صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال:

ياابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت؟

فأخبره رسول الله ﷺ.

فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى عليه السلام.

ثم قال: ولتكذَّبن. والتؤذين، ولتخرجن، ولتقاتلن، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه.

ثم ماذا؟ أدنى ورقة رأس الرسول ﷺ فقبَّلها، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

امتحان خديجة برهان الوحي

قالت خديجة - رضي الله عنها- لرسول الله ﷺ: أي ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟

قال ﷺ: نعم.

قالت خديجة: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل فقال ﷺ: يا خديجة: هذا جبريل.

قالت خديجة: قم يابن عم فاجلس على فخذي اليسرى.

فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها.

قالت خديجة: هل تراه؟

قال ﷺ: نعم.

قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى.

فتحول رسول الله ﷺ، وجلس على فخذها اليمنى.

فقالت: هل تراه؟

قال ﷺ: نعم.

قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها.

قالت: هل تراه؟

قال ﷺ: نعم.

فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها.

قالت: هل تراه؟

قال ﷺ: لا.

قالت: يابن عم، أثبت... أثبت وأبشر؛ فوالله إنه لملك وليس بشيطان.

ابتداء تنزيل القرآن
على الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: فابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان الذي قال الله تعالى فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[2].

إسلام خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

آمنت خديجة بنت خويلد بمحمد ﷺ وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهوِّن عليه أمر الناس.

تبشير خديجة ببيت من قصب

قال ابن إسحاق: بسنده عن جعفر بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ.

«أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب[3]: لا صخب فيه ولا نصب»[4].

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن جبريل ﷺ أتى النبي ﷺ فقال: **«اقرئ خديجة السلام من ربها»**.

فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.

---

(١) سورة القدر كاملة.

(٢) سورة الدخان: (١- ٤).

(٣) القصب ها هنا: اللؤلؤ المجوف.

(٤) هذا الحديث رواه مسلم متصلاً عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها.

فقالت خديجة: إنَّ الله هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

قال ابن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة حتى شقَّ ذلك عليه فأحزنه، فجاءه جبريل عليه السلام بسورة الضحى يقسم له ربه، وهو الذي أكرمه بما أكرمه به... ما ودعه وما قلاه؛ فقال: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1].

أي: وما أبغضك منذ أحبك.

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾[2].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[3].

أي: من النصر في الدنيا، والثواب في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[4].

يعرفه الله ما ابتداه به من كرامته في عاجل أمره، ومنه عليه في آجله، وحفظه من الضلالة، واستنقاذه من ذلك كله برحمته.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾[5].

أي: لا تكون جبارًا ولا متكبرًا، ولا فاحشًا فظًا على الضعفاء من عباد الله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[6]. أي: أذكرها وادع إليها، فجعل رسول الله

---

(١) سورة الضحى: (١- ٣).
(٢) سورة الضحى: ٤
(٣) سورة الضحى: ٥.
(٤) سورة الضحى: (٦، ٨).
(٥) سورة الضحى: (٩- ١٠).
(٦) سورة الضحى: ١١.

ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه، وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله.

وفاة خديجة - رضي الله عنها -

توفيت أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها- قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بثلاث سنوات في مكة، ولها من العمر خمس وستون، ولما حضرتها الوفاة؛ دخل عليها النبي ﷺ فقال: تكرهين ما أرى منك، وقد جعل في الكره خيرًا»، وذلك لقوله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1].

وعند دفنها نزل رسول الله ﷺ في حفرتها، وأدخلها القبر بيده الشريفة في الحجون»[2].

ووجد ﷺ لفقدها فقد تركت وفاتها في نفسه أثرًا عميقًا؛ إذ كانت الزوجة الوفية التي يجد فيها سكن النفس وراحة الزوج.

كما كان لموت عمه أبي طالب قبلها أثر كبير في نفسه أيضًا حتى أطلق النبي ﷺ على ذلك (عام الحزن) لشدة ما كان فيه من الشدائد في سبيل الدعوة أيضًا.

والنبي ﷺ لم يحزن على فراق عمه، وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد، ولم يطلق على تلك السنة عام الحزن لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم؛ بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهم من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية في وجهه، فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات كثيرة للدعوة وسبلاً مختلفة

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) أحد جبال مكة المكرمة.

للتوجيه والإرشاد والتعليم، وكان يرى في ذلك بعض النجاح في العمل الذي أمره به ربه[1].

ولقد ترك موت أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها- فراغًا كبيرًا في حياة رسول الله ﷺ، أحس به إحساسًا قويًا حتى خشي عليه.

لقد غدا البيت بموتها خلاءً موحشًا لا أنيس به ولا سمير، ولما قالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة؟

قال ﷺ: أجل كانت أم العيال وربة البيت.

ولقد صدق الشاعر (المتنبي) في قوله:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن فقدنا
لفضلت النساء على الرجال

لقد بقيت خديجة مع الرسول ﷺ زوجةً صالحةً مؤمنةً أربعًا وعشرين سنةً وأشهر ثم توفيت.

يقول ابن كثير في كتابه «الفصول»: وللسيدة خديجة - رضي الله عنها- أوليات كثيرة لم تسبق إليها من ذلك:

أول من تزوَّج رسول الله ﷺ «خديجة».

وأول من آمن به وصدقه خديجة.

وأول من صلى مع الرسول ﷺ الصلوات المفروضة.

وأول النساء التي رزق الرسول منها بالولد.

(١) انظر: في ظلال القرآن سيد قطب.

وأول من بشَّرها رسول الله ﷺ بالجنة.

وأول من أقرأها ربها السلام.

وأول صديقة من المؤمنات.

وأول زوجات النبي ﷺ وفاةً.

رحم الله أم المؤمنين خديجة وأسكنها فسيح جناته في الفردوس الأعلى عند مليك مقتدر.

* * *

تذييل

المرأة هذا الجهاز العجيب!!

المرأة جهاز روحي عجيب، يلقي في قلب الرجل أسرار القوة، ومعاني الثقة بالنفس.

والمرأة إنسان كريم، وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفيعة، وقد قضت سُنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة، وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات، أمًّا وزوجةً وربة بيت.

فإن كانت أمًّا؛ ففي طاعتها رضوان الله تعالى، وتحت أقدامها الجنة، وإن كانت زوجةً صالحةً؛ فهي أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله.

وهي الحسنة التي يطلبها المؤمن من ربه صباح مساء، ويتمناها في دنياه وآخرته بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

وإن كلمة واحدة منها – لزوجها – وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران أو مكائد الرجال كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس، فإذا هو خلق جديد، وبناء غير الذي كان يوشك أن ينهار.

إن المرأة في منهج الإسلام هي الستر والوقاية، هي الحفظ والرعاية، تلتقي بزوجها فتكاشفه بسرها، ويفضي بين يديها بجملة حاله .. تعرف ماضيه وحاضره، وتتطلع إلى مشاريعه ومستقبله، وتساهم معه في معركة الحياة الضارية التي يخوضها بغية توفير الحياة الهادئة التي يريدانها أنها معًا، حتى يوفقهما الله سبحانه وتعالى في تربية الأولاد، ويقيما دعائم عشهما الصغير على الود والمحبة.

(١) سورة البقرة: ٢٠١.

إنَّ الله سبحانه وتعالى عبر عن الحياة الزوجية باللباس، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1].

واللباس في حقيقته لا يستغنى عنه الإنسان في هذه الرحلة رحلة الحياة؛ فهو الذي يحول بينه وبين وقدة الصيف ولفحة الشمس، وهو الذي يدثره ويبعث الدفء في أوصاله في ليالي الشتاء، وهو فوق ذلك يستر تشوهات الجسم وعيوبه بالنسبة لكل منهما، فلا تمجهما العيون أو تنفر منهما الآخرين.

وهو بالنسبة للمرأة ستر ووقاية أيضًا يستر محاسنها ومفاتناها، ويقي جسدها من عيون الرجال المتلصصة، ومن في قلوبهم مرض، وإذا كان هذا بالنسبة للباس؛ فماذا بالنسبة للرجل والمرأة في حياتهما الزوجية؟!

إن كلاً منهما ستر للآخر لأقواله وأفعاله، وحفظ لأسراره وما يخفيه؛ فالمرأة ستر للرجل ووقاية، عندما يوشك أن تغلبه الإرادة؛ والرجل ستر للمرأة وصيانة عندما تغلبها العاطفة، ويسيطر عليها ضعف الأنثى.

والله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة للنساء في وصفهن والقيام بواجبهن تجاه زوجها وأمام ربها: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[2] أي: حافظات لزوجها في حياته الخاصة والعامة، وحافظات على ماله وأولاده، وحافظات لأسراره وأقواله، وحافظات لماء وجهه؛ فلا تكلفه من المطالب المعيشية ما لا يقدر عليه؛ لأن هذا يؤذيه في شعوره، و قد يضطر أن يبحث عن وسائل للكسب الحرام حتى يرضي زوجته.

وقد كانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله: اتق الله، وإياك والكسب الحرام؛ فإننا قد نصبر على الجوع والضر، ولكننا لا

(١) سورة البقرة: ١٨٧.
(٢) سورة النساء: ٣٤.

نصبر على النار.

ومن جملة ما يحفظ ما يكون بينهما من علاقات خاصة؛ فلا تكون حديثًا في المجالس أو سمرًا في الندوات مع الأصدقاء والصديقات؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة، والمرأة تفضي إليه ثم ينشر سرها**»[1].

وفي رواية لمسلم: «**إن من أعظم الأمانة....**» على حذف المضاف أي: أعظم خيانة للأمانة.

والحديث الآخر رواه أبو هريرة ﷺ من قوله: صلى بنا رسول الله ﷺ، فلما سلَّم أقبل علينا بوجهه، فقال: مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول فعلت بأهلي كذا؟! فسكتوا.

فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدث؟!

فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ، ويسمع كلامها فقالت: أي والله إنهم يتحدثون، وإنهن ليتحدثن.

فقال ﷺ: «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبة بالسكة، فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه»[2].

وبعد هذا الأدب النبوي الكريم لأمته، هل يجوز للمرأة التي عرفت القليل والكثير عن حياة زوجها أن تكشف سره؟! وأن تتحدث للآخرين به، وأن توضح لهم ما يريد أن يخفيه عنهم أو يكتمه عن دنياهم؟!

الحقيقة أن بعض النساء يفعلن ذلك، وينشرن على الآخرين ما يجب أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٧)، وأبو داود (٤٨٧٠)، وأحمد (٢/ ٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤١)، وأبو داود (٢١٧٤) في النكاح.

يخفى، ونتيجة هذا الإفشاء، غالبًا ما تكون وخيمة، وقد يؤدي إلى الانفصال أو الطلاق. .. وقد يكتم الرجل سرًّا يخفيه عن كل ما حوله، وتأتي المرأة فتكشف هذا السر، فيكون نتيجة ذلك القتل أو السجن أو مشاكل لا تقف عند حد.

والدليل على ذلك سر رسول الله ﷺ الذي ألقى به لأم المؤمنين حفصة فأفشته، فكان ما كان، من هجر زوجاته شهرًا على ما يقال، والتفكير في الانفصال عنهن جميعًا.

فالمرأة العاقلة هي التي تحافظ على أسرار زوجها.. ولا تعلنها للآخرين.. ولو كانوا أقرب المقربين إليها – حرصًا على سلامة الأسرة، وسعادة البيت وتربية الأطفال.

فهل تراهن فاعلات؟!

نرجو من الله ذلك.

* * *



أم المؤمنين

عائشة بنت أبي بكر الصديق

رضي الله عنها

قتل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه

فوقفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على قبر الرسول ﷺ

وقالت: يا رسول الله: إني ناعية إليك أحظى أحبابك

وذاكرة لك أكرم أودائك عليك.

قتل والله حبيبك المجتبى، وصفيك المرتضي

قتل والله من زوجته خير النساء وأكرم الزوجات

قتل والله من آمن ووفى.

وأني لنادبة ثكلى، وعليه باكية حرى.

عائشة أم المؤمنين

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها

عائشة زوج الرسول ﷺ، وأحب نسائه إلى قلبه، والدها «أبو بكر الصديق» الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة، ما عكم – أي: ما تلبث – حين ذكرته له، وما تردد فيه»**[1]. وهو صاحب الرسول ﷺ في الغار، ورفيقه في الهجرة، قال تعالى: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾[2].

وأمها: «أم رومان بنت عامر»، كانت زوجة فاضلة، وأمًّا بارة، وسيدة حكيمة، قال عنها رسول الله ﷺ: **«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين؛ فلينظر إلى أم رومان»**[3].

وأخوها: «عبد الرحمن بن أبي بكر» الذي قال لمعاوية بن أبي سفيان عندما طلب البيعة لابنه يزيد:

«أهرقلية؟! إذا مات كسرى كان كسرى مكانه؟ لا نفعل والله أبدًا».

وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردها عليه وأبى أن يأخذها وقال: «أبيع ديني بدنياي».

فخرج إلى مكة فمات قبل أن تتم البيعة ليزيد بن معاوية[4].

وأختها: «أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين» التي وقفت مع ابنها عبد الله

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٢٠٠) ط. مصر.
(٢) سورة التوبة: ٤٠.
(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٧٧).
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨٢٥).

بن الزبير، وشدت من أزره أمام طغيان الحجاج.

وعندما قال لها: أخشى يا أماه أن ظفر بي بنو أمية أن يمثلوا بجثتي.

قالت: «يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، فإن كنت على الحق فسر على بركة الله، وإن كنت على الباطل فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأصحابك».

كانت ولادة عائشة بمكة المكرمة، تلك البقعة المباركة من أرض الله، وكان والدها من كبار التجار في مكة، ودرت عليه التجارة الشيء الكثير، فعاش في بحبوحة من العيش، وفي رغد من الحياة.

وكان رجلاً كريمًا بارًّا بأولاده وأسرته، وكان سخي اليد في غير إسراف، رحيمًا في غير ضعف، فيه رجولة واتزان، وتدبير وإتقان، واكتسبت منه زوجته هذه الصفات، وسارت على نهجه في الحياة، فنشأ أولادهما على هذه الخصال الفاضلة، والتربية السوية، التي سيكون لها الأثر الكبير في حياة عائشة أم المؤمنين في مقبل الأيام.

لقد عاشت عائشة – رضي الله عنها – أحداث الدعوة الأولى مع أبيها – الذي فتح الله قلبه للإسلام – وتابع محمدًا فيما دعا له، وتقدم بجميع ماله لنصرة هذا الدين، والدفاع عن أتباعه ضد تحجر القلوب وضلالات النفوس.

ولقد شبت في هذا الجو الذي أخذ الكثير من الشد والجذب بين سدنة الأصنام وعباد الواحد الأحد، فوعت على صغر سنها طبائع النفوس، وسخائم الأفئدة، وظلام البصيرة عند هؤلاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

ولقد منحها الله سبحانه وتعالى كل ما تتطلبه أنثى في الحياة، من سلامة القوام، وصباحة الوجه، ونضارة الصبا، وذكاء لمَّاح. الأمر الذي جعل أحد

سراة مكة وهو المطعم بن عدي يتقدم لخطبتها إلى ابنه جبير وهي لم تتعد مرحلة الطفولة بعد.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بها الخير، وأدخر لها ما تتطاول إليه كل فتاة في هذه الحياة، وأعدها لتكون زوجة الرسول ﷺ.

ولكن كيف تم هذا؟

وهل هناك من أسباب جعلت الرسول ﷺ يخطب عائشة؟

تقول أوثق المصادر التاريخية التي بين أيدينا:

«لقد ماتت خديجة زوجة الرسول ﷺ، وعاش الرسول بعدها في وحشة الفراق والحزن، والصحابة يرقبون هذه الآثار على نبيهم فيشفقون عليه من تلك الوحدة، ويودون لو تزوج لعل في الزواج ما يؤنس وحشته، ويخفف بعض ما يعانيه بعد أم المؤمنين الراحلة.

لكن واحدًا من الصحابة لم يجرؤ على التحدث إليه في موضوع الزواج، وإذا كان الرجال يجدون بعض الصعوبة والحرج في مثل هذه الأمور؛ فإن النساء بما لديهم من أساليب وحيل يقدرون طرق مثل هذه الموضوعات، والوصول بما لديهم من حاسة الأنثى إلى معرفة وكشف حقيقة الرجال.

لقد سعت خولة بنت حكيم السلمية إلى بيت الرسول ﷺ وفاتحته فيما لم يستطع أن يفاتحه فيه الرجال، وقالت له: يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة، فأجاب: «أجل كانت أم العيال وربة البيت»[1].

فاقترحت عليه أن يتزوج.

فسأل محدثته في نبرة عتاب: ومن ... بعد خديجة؟!

(١) موسوعة آل النبي – د. بنت الشاطئ.

قالت خولة على الفور، كأنما انتظرت هذا السؤال، وأعدت له الجواب: إن شئت يا رسول الله بكرًا، وإن شئت ثيبًا.

فقال: «من البكر؟ ومن الثيب؟».

قالت: أما البكر فعائشة بنت أبي بكر، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك، واتبعتك على الحق.

وسكت الرسول ﷺ فإن عائشة يعرفها منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه، ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة، وبديهة حاضرة مع فصاحة في اللسان، وشجاعة في القلب، وبلغ من إعزاز الرسول ﷺ لها أن كان يوصى بها أمها قائلاً:

«أم رومان، استوصي بعائشة خيرًا واحفظيني فيها»[1].

فإذا رآها يومًا غاضبة وقف في صفها، وقال لأمها في عتاب رقيق: «يا أم رومان، ألم أوصيك بعائشة أن تحفظيني فيها؟».

وأذن لها الرسول ﷺ في خطبتها.

تقول خولة بنت حكيم: فأتيت أم رومان فقلت: يا أم رومان، وماذا أدخل الله عليكم من الخير؟

قالت: وما ذاك؟

قلت: رسول الله ﷺ يذكر عائشة.

قالت: انتظري، فإن أبا بكر آت، قالت: فجاء أبو بكر فذكرت ذلك.

فقال: أوتصلح له، وهي ابنة أخيه؟

(١) سيرة ابن هشام. تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

فعادت خولة إلى الرسول ﷺ فحدثته بما كان من أمر أبي بكر فردها الرسول ﷺ وقال: أما أنا أخوه وهو أخي، وابنته تصلح لي.

عندها قام أبو بكر، واتجه إلى بيت المطعم بن عدي وقال له: ما تقول في أمر هذه الجارية يقصد عائشة، وكان خطبها لابنه؟

فقالت زوجة المطعم: لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تُصْبيه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟

فاتجه أبو بكر إلى المطعم وقال له: وأنت ما تقول؟

فقال: أقول الذي قالته!!

فقام أبو بكر – رضي الله عنه – ليس في نفسه من الوعد بشيء، وقال لخولة بنت حكيم: قولي لرسول الله ﷺ فليأت[1].

فجاء رسول الله ﷺ فعقد على عائشة، وأصدقها أربعمائة درهم[2].

وكان ذلك بمكة في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي بنت ست سنين[3]، وفي رواية: أنها كانت بنت سبع سنين[4].

وسعد الرسول ﷺ بخطبة عائشة، وكان يتردد على بيت صاحبه في أوقات متقاربة.

ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وازدحمت دار الأرقم بن أبي الأرقم بالمسلمين الذين يتابعون محمدًا فيما يدعو إليه.

وعندما اشتد أذى المشركين لهذه الفئة المؤمنة أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة

(١) انظر طبقات ابن سعد، وسنن النسائي، وصحيح البخاري، وشرح الزرقاني.
(٢) انظر سيرة ابن هشام، والسمط الثمين.
(٣) انظر طبقات ابن سعد، وسنن النسائي، وصحيح البخاري، وشرح الزرقاني على المواهب.
(٤) انظر سيرة ابن هشام، والمستدرك للحاكم ومسند الشافعي، وجامع الأصول لابن الأثير.

إلى يثرب بعد أن كانوا يهاجرون إلى الحبشة.

ورصد المشركون تحركات المسلمين وشاهدوهم، وهم يحملون الذراري والأطفال إلى دار الأوس والخزرج، وعرفوا أنها دار منعة.

فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليها، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجى منهم، وأجمعوا أمرهم على قتل محمد ﷺ، وتفرقوا على ذلك.

وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبرهم الخبر، وعقد الرسول أمره على الهجرة حيث هؤلاء الأنصار الذي بايعوه على أن يمنعوه وينصروه، وجاء رسول الله ﷺ إلى منزل أبي بكر.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

«كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء.

فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك.

فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي.

فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.

ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتاين قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق.

هاجر الرسول ﷺ وصاحبه إلى المدينة، وبقيت عائشة مع أمها وأخواتها يتنسمون الأخبار، ويطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يصل المهاجران إلى مأمنهما، حتى يتمكنوا من اللحاق بهما.

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة، وكأنها لا تمر ولا تتحرك، ولا حديث لهما إلا على الهجرة واللحوق بأحب الناس إليهما.

وما كاد الرسول ﷺ يستقر بالمدينة – هو وصاحبه أبو بكر – حتى بعث زيد بن حارثة ومعه أبو رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمائة ألف درهم أخذها من أبي بكر ليحضر بناته.

وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله أم رومان وعائشة وأختها أسماء.

وما هي إلا أيام حتى أقلعت القافلة من مكة مع زيد بن حارثة أم أيمن وابنه أسامة، ومع أبي رافع أم كلثوم وسودة بنت زمعة، ومع عبد الله بن أبي بكر أم رومان وأختيه، وخرج معهم طلحة بن عبيد الله، حتى قدموا المدينة فنزلوا في دار بني الحارث بن الخزرج[1].

وأصبحت عائشة قريبة من رسول الله ﷺ حتى إذا تم بناء المسجد وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكر في الدخول بعائشة.

(١) أعلام النساء: عمر رضا كحالة (٣ / ١١) وراجع طبقات ابن سعد (١/ ٢٣٧).

فأين عائشة الآن؟ أتراها تستعد لهذا الحدث السعيد؟

أم أنها طفلة صغيرة، ولم تعد لهذا الأمر عدته؟

إن الأخبار التي بين أيدينا تقول: إنها كانت تلعب مع صويحباتها تحت النخيل، فجاءت أمها فأنزلتها ثم مشت بها حتى انتهت إلى الماء فمسحت وجهها بشيء من ماء، وفرقت جميمة كانت لها، ثم دخلت على رسول الله ﷺ فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتها إليهن، فأصلحن من شأنها، ثم بنى بها رسول الله ﷺ في بيتها الذي توفي فيه رسول الله[1]، فكانت أحظى نسائه لديه وأحبهن.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٨/٦٣).

عائشة حبيبة ومحبوبة

عاشت عائشة - رضي الله عنها- في بيت النبوة حبيبة إلى رسول الله ﷺ قريبة إلى نفسه، شيقة إلى قلبه، لا يفارقها حتى يعود إليها، ولا يظعن إلا ويئوب وملء فؤاده شوق وحنين.

وعلم المسلمون بحب رسول الله ﷺ لعائشة، فكان أحدهم إذا أراد أن يهدي هدية إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا ذهب إلى بيت عائشة بعث بها إليه[1].

وعلمت أمهات المؤمنين بما حدث ويحدث في بيت عائشة، فأرادوا منافستها في هذه الحب، ومشاركتها في هذا الود، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك!

فأرسلوا أم سلمة لرسول الله ﷺ وقلن لها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة؛ فكلمي رسول الله أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان أو حيث ما دار.

وذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله ﷺ فأعرض عنها، ولم يقل لها شيئًا.

فسألنها فقالت: ما قال لي شيئًا.

فقلن لها: كلميه حتى يكلمك.

فجاءته فكلمته فقال لها: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها.

فقالت: أتوب إلى الله من ذلك يا رسول الله.

وعلمت أمهات المؤمنين ما كان من سفارة أم سلمة، وما قاله رسول الله

(١) أعلام النساء: رضا كحالة (٣/ ١٢) وصحيح الإمام مسلم (١٥/ ٢٠٥).

ﷺ، ولكنهن لم يقنعن ذلك، ولم يوافق مطلبهن.

فأرسلن فاطمة الزهراء ابنته – رضي الله عنها – عله يستجيب لها.

وجاءت فاطمة إلى منزل أبيها فوجدته مضطجعًا مع عائشة في مرطها فاستأذنته فأذن لها.

فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وعائشة ساكتة.

فقال لها رسول الله: أي بنية ألست تحبين ما أحب؟

قالت: بلى.

قال: فأحبي هذه؛ فقامت فاطمة لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فخرجت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال[1] فقلن: ما نراكِ أغنيت عنا من شيء؛ فارجعي إلى رسول الله فقولي له:

«إن نسائك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة».

فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدًا.

هل اكتفين بذلك الذي حدث، ورضيت أمهات المؤمنين بما قسم الله لهن؟ الحقيقة أنهم لم ييأسن من الطلب؟ وكأنهن عزمن على المطالبة، بما يرونه حقًا لهن حتى يستجيب لهن رسول الله ﷺ.

واحترن من يكلم رسول الله هذه المرة؟

أيذهبن إليه بمجموعن؟ .. أيرسلن إليه أحد الرجال؟ أينتظرن حتى يمر على كل واحدة منهن فتكلمه في هذا الأمر؟

---

(١) صحيح الإمام مسلم (١٥/ ٢٠٥).

إن حيرتهن لم تطل فلقد قالت زينب بنت جحش أم المؤمنين: أنا أذهب إليه وأحدثه بما عندنا، وبما يغضبنا من هذا الأمر.

فوافقن على ذلك .. واتجهت زينب إلى حجرة عائشة حيث يجلس الرسول ﷺ فاستأذنت عليه فأذن لها.

فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة.

ولم تكتف بذلك، ولكنها وقعت عن عائشة واستطالت عليها، وعائشة ترقب طرف رسول الله ﷺ هل يأذن لها في الرد عليها أم لا؟

أيرضي رسول الله ﷺ أن تتطاول إحدى نسائه على الأخرى في بيتها وفي حضرته؟

إنه لا يقبل ذلك، ولا يوافق عليه- وهذا ما لحظته عائشة -رضي الله عنها- من أنه لا يمانع أن تنتصر عائشة لنفسها ولا يكرهه.

فردت على زينب حتى أفحمتها[1] وهدأت العاصفة، ورضيت زينب، وعادت إلى أمهات المؤمنين، لتطلب منهن أن يقنعن بما قسم الله لهن.

ومن محبته ﷺ لأم المؤمنين عائشة أنه كان بينها وبين النبي كلام فقال لها: «من ترضين بيني وبينك؟ أترضين بعمر؟».

قالت: لا أرضي عمر قط؛ عمر فظ غليظ.

قال: «أترضين بأبيك بيني وبينك؟».

قالت: نعم.

(١) طبقات ابن سعد وصحيح الإمام مسلم (١٥/٢٠٧)، وأعلام النساء. عمر رضا كحالة (٣/١٣).

فبعث رسول الله ﷺ رسولاً إلى أبي بكر، فلما جاء قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه من أمرها كذا**».

قالت عائشة: اتق الله ولا تقل إلا حقًّا.

فرفع أبو بكر يده فلطم أنفها، فولت عائشة هاربة منه، فلزقت بظهر النبي ﷺ حتى قال له رسول الله: «أقسمت عليك لما خرجت، فإنا لم ندعك لهذا».

فلما خرج أبو بكر قامت عائشة، فتنحت عن رسول الله ﷺ فقال: «أدني مني»، فأبت أن تفعل.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «لقد كنت قبل شديدة اللصوق بظهري»[١].

إن عائشة أم المؤمنين التي ملأت قلب الرسول ﷺ كان لها دور لا ينكر في حياة الرسول ﷺ، وفي تخفيف بعض ما كان يعانيه من تبعات الدعوة، وأمور المسلمين.

ولقد كانت عائشة -رضي الله عنها- تفخر على أزواج النبي ﷺ بعشر خصال لم يعطهن ذات خمار قبلها.

فكانت تقول: صورت لرسول الله ﷺ قبل أن أصور في رحم أمي، وتزوجني بكرًا، ولم يتزوج بكرًا غيري، وكان ينزل عليه الوحي، وهو بين سحري ونحري، ونزلت براءتي من السماء، وكنت أحب الناس إليه ﷺ، وكان يصلي، وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيري، وكنت اغتسل أنا وهو من إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه، وقبض الله نفسه وهو بين نحري وسحري، ومات الليلة التي كان يدور عليَّ فيها، ودفن في بيتي[٢].

(١) أخرجه الحافظ الدمشقي. راجع السمط الثمين ص٥١.
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٦٣).

إن ما ذكرته السيدة عائشة – رضي الله عنها – هو من عوامل حب الرسول لها ودلائل وعلامات على هذا الحب الكبير الذي كان يملأ قلب الرسول ﷺ، وفاض على البشرية كلها.

ولقد كانت عائشة – رضي الله عنها – تحب الرسول حبًّا لا يعادله حب، وكانت الغيرة تسيطر عليها، فتدفعها إلى أمور تغضب رسول الله ﷺ وتقلقه، ولكن الذي كان يبرر لهذا ذلك، هذا الإعزاز الكبير، والحب الغامر الذي يملأ قلبها تجاه رسول البشرية.

قالت يومًا للنبي ﷺ وهو داخل عليها: أين كنت يا رسول الله؟

قال: «كنت عند أم سلمة».

قالت: أما تشبع؛ فتبسم.

فقالت: يا رسول الله، لو مررت بعدوتين إحداهما عافية لم يرعها من الناس أحد وأخرى قد رعاها الناس، أيهما كنت تنزل؟

قال: «بالعافية التي لم يرعاها الناس».

قالت: فلست كأحد من نسائك[1].

ولقد أرادت السيدة عائشة أن تقول للرسول ﷺ أنه تزوجها بكرًا بخلاف بقية الزوجات فعليه أن يطيل عندها المكث، ويخصها بما لم يخصص به الأخريات من نسائه -رضوان الله عليهن.

إنها طبيعة المرأة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في جبلتها، ومنها الغيرة التي هي إحدى صفات المرأة التي لا تتخلى عنها، ولا تستطيع إن أرادت ذلك، وما أحرى الرجال أن يحسبوا هذه الغيرة عند معاملتهم للنساء.

(١) اخرجه مسلم، وأبو حاتم، وذكره صاحب الطبقات جـ٨.

وأيضًا من دلائل هذا الحب الكبير لرسول الله ﷺ في قلب عائشة أن جاءها يومًا وقال لها: «سأعرض عليك أمرًا فلا عليك، ألا تعجلي به حتى تشاوري أبويك»، فقالت عائشة: وما هذا الأمر يا رسول الله؟.

فتلى عليها النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فقالت عائشة: في أي ذلك تأمرني أن أشاور أبوي، وقد أعلم والله أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقك؛ بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

فسر النبي بذلك وأعجبه، وقال:

«سأعرض على صواحبك ما عرض عليك»، فكان النبي ﷺ يقول لهن: كما قال لعائشة ثم يقول: قد اختارت عائشة الله ورسوله والدار الآخرة».

وكانت عائشة شديدة الغيرة، والغيرة في طبائع النساء ألوان؛ تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه، ولو شغلته الذكرى، ولم تشغله المودة الحاضرة؛ لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله، وهي تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب، ولو لم تكن ثمة منافسة.

وتغار المرأة من المرأة الجميلة، وإن لم تنافسها على رجل تحبه، وتغار من شريكتها في رجلها كاذبًا ما كان حظها من الجمال، وتغار من كل مزية غير الجمال، ما كان فيها سبيل إلى الحظوة في القلب الذي تريده لها، ولا تطيق المزاحمة عليه.

والأنثى الغيرية في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هناك في سيرة عائشة – رضي الله عنها – كما روتها هي، وكما رواها غيرها، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها، والحق النبوي الذي هي

جاهدة جهدها أن توفره وترعاه.

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبي ﷺ بالسيدة عائشة، لكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها؛ لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها، فلم يزل يذكرها، ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها.

وكان ﷺ يبرُّ بعض العجائز، فسألته السيدة عائشة في ذلك، فقال: «إن خديجة أوصتني بها».

فقالت مغضبة: خديجة .. خديجة .. لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة، وعلى حلم رسول الله ﷺ ربما غضب أحيانًا من ثورتها على ذكرى خديجة، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها – أم رومان – عندها، فقالت له أمها: يا رسول الله ما لك ولعائشة؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها.

وسألته مرة: ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرًا منها؟ فأسكتها قائلاً: «والله ما أبدلني الله خيرًا منها.. آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها»[1].

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها، وربما خرج من عندها في ليلتها، فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها، ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء ويستغفر لهم، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها: بأبي أنت وأمي .. أنت في حاجة ربك، وأنا في حاجة الدنيا، ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خاطرها من خاطرها الأول، ومن خطأ ظنها؛ فلما قفل ﷺ إليها لحظ ما بها، فسألها: ما هذا

---

(١) الصديقة بنت الصديق: عباس محمود العقاد ص (٣٠ – ٣١).

النفس يا عائشة؟

فقالت: بأبي أنت وأمي أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع.

وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها، فإذا هي في مثل تلك الحالة الأولى، فقال: يا عائشة أغرت؟ فقالت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك.

وكانت عائشة تغار من اللواتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ تقول: تهب المرأة نفسها؟

فلما أنزل الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾[1].

قالت: ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك يا رسول الله[2].

وخرجت عائشة مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وخرج معه نساؤه، وكان متاع عائشة فيه خف، وكان على جمل ناج، وكان متاع صفية بنت حيي فيه ثقل، وكان على جمل بطيء.

فقال رسول الله ﷺ: «حولوا متاع عائشة على جمل صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب».

فلما رأت عائشة ذلك قالت:

يا لعباد الله!! غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: يا أم عبد الله إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل، فأبطأ الركب فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها.

(١) سورة الأحزاب: ٥١.

(٢) تفسير الإمام ابن كثير (٥/ ٤٨٤).

فقالت عائشة: أليس تزعم أنك رسول الله؟

فتبسم وقال: «أوفي شك أنت يا أم عبد الله؟».

فعادت فقالت: أو لست تزعم أنك رسول الله؛ فهلا عدلت؟!

فسمعها أبو بكر، وكان فيه حدة فأقبل عليها، ولطم وجهها.

فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا أبا بكر».

فقال: يا رسول الله أولم تسمع ما قالت؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»[1].

وصدق رسول الله ﷺ إن الغيرة تعمي وتصم، إذا كانت بين الرجال؛ فما بالك إذا كانت بين النساء.

فهل تلام عائشة على ذلك، إذا كانت غيرتها على الرسول الكريم الذي صفاه ربه من دنس الشرك والجاهلية، وأدبه فأحسن تأديبه - وأكمل خلقه وخلقه، وحمله رسالة ربه - وجعله خاتم النبيين، وحبيب العالمين.

إن من حق عائشة أن تغار على زوجها ورجلها - وليس في ذلك غضاضة أو نقص، فعلماء النفس يقولون: إن الغيرة إحدى بنات الحب.

❋ ❋ ❋

(١) أعلام النساء (٣/ ٢٠) وذكره صاحب السمط الثمين، وقال: أخرجه الحافظ الدمشقي.

عائشة رضي الله عنها والعلم

كانت أم المؤمنين عائشة حاملة لواء العلم والمعرفة، عارفة بأحداث عصرها الذي عاشت فيه، خبيرة بشئون بيتها، وما يجب أن تقوم به، وكيف لا تكون كذلك؟ وقد نشأت في بيت أبيها الذي كان أعلم الناس بأنساب العرب وأيامهم، وفقهت أمور دينها، وتعلمت مبادئ الإسلام في مدرسة الرسول ﷺ، وتلقت أصول الأدب والأخلاق على يد من أدبه ربه فأحسن تأديبه، ومدحه في محكم آياته بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وكانت حياتها في بيت النبوة الذي نزل فيه الوحي، ويتلى فيه القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

من أجل هذا كانت عائشة – رضي الله عنها – على قدر كبير بفقه الإسلام ومبادئه، ودراية بأنواع المعرفة وأبوابها.

قال عروة لعائشة: يا أمتاه لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر الصديق، ولا أعجب من علمك بالشعر، وأيام الناس أقول: ابنة أبي بكر وكان من أعلم الناس.

ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ومن أين هو؟

قال: فضربت عائشة على منكبه، وقالت:

«أبا عروة إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره، فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجه فمن ثم»[2].

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) أعلام النساء: عمر رضا كحالة (٣/ ١٠٥).

وقال الزهري: لو جمع علم عائشة بعلم جميع أزواج النبي ﷺ وجميع النساء كان علم عائشة أكثر، وفي رواية: أفضل.

وكيف لا تكون كذلك، وهي صاحبة عقلية لماحة وعين فاحصة، الأمر الذي جعلها تعرف علم الطب، وتعرف أدويته، وتفهم في أساليبه، من مرض الرسول ﷺ، وما يوصف له من دواء.

وروت عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر بن الخطاب وفاطمة الزهراء وسعد بن أبي وقاص، وحمزة بن عمرو الأسلمي وجذامة بنت وهب «٢٢١٠» حديث ذكر لها في الصحيحين منها سبع وتسعون ومائتا حديث، والمتفق عليه منها أربع وسبعون ومائة حديث، وبهذا يقول علماء الحديث: إن عائشة -رضي الله عنها- تعد من رواة الحديث المكثرين[١].

وقال عروة: سألت عائشة عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[٢].

فوالله ما على أحد جناح ألا يطوف بين الصفا والمروة. قالت: بئسما قلت يا ابن أخي، إن هذه لو كانت كما أولتها كانت لا جناح ألا يطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل[٣]، وكان من أهلَّ بها يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. فقالوا: يا رسول الله/ إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقالت عائشة: وقد مشى رسول الله ﷺ بينهما، فليس لأحد أن يترك

---

(١) المجتبى لابن الجوزي، والكمال في معرفة الرجال للحافظ المقدسي.
(٢) سورة البقرة: ١٥٨.
(٣) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.

الطواف بينهما.

فأخبرت أبا بكر عن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهلُّ لمناة كانوا يطوفون كلهم بين الصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا: «يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]

قال أبو بكر: فأحسب هذه الآية: نزلت في الفريقين كليهما؛ في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بين الصفا والمروة، والذين كانوا يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام»[١].

وكانت عائشة – رضي الله عنها – فصيحة اللسان بليغة المقال، إذا حدثت ملكت على الناس مسامعهم، وإذا تكلمت أخذت بمجامع القلوب.

قال الأحنف بن قيس: «سمعت خطبة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان، وعلي بن أبي طالب والخلفاء هلم جرا إلى يومي هذا؛ فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه في عائشة».

وقال موسى بن طلحة: «ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة»[٢].

وقال معاوية: «والله ما رأيت خطيبًا قط أبلغ ولا أفصح من عائشة»[٣].

ولما توفي أبو بكر – رضي الله عنه – وقفت عائشة على قبره فقالت:

«نضر الله وجهك يا أبت، وشكر لك صالح سعيك؛ فلقد كنت للدنيا مذلاً

(١) أخرجه البخاري، ومسلم.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.
(٣) المستدرك للحاكم، وأخرجه الترمذي وقال: حسن.

بإدبارك عنها، وللآخرة معزًا بإقبالك عليها، ولذا كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر عنك حسن العوض منك، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك واستقضيه بالاستغفار لك أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا، فلقد قمت بأمر الدين لما وهي شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه؛ فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك»[1].

إنها حكيمة أخذت حكمتها من كتاب الله تعالى، وبليغة أخذت بلاغتها من أدب الرسول ﷺ، وفصيحة؛ لأنها عربية ونشأت بين بطاح مكة، ومؤثرة، وكيف لا تكون كذلك، ولقد استقت من نبع الإسلام، وتعلمت الكثير من آداب الرحمن.

❊ ❊ ❊

(١) أعلام النساء: عمر رضا كحالة (٣/ ١١٤).

المرأة ووظيفتها عند أم المؤمنين

من تكون المرأة المسلمة في نظر عائشة – رضي الله عنها – وأي الأعمال تختار لها؟

أهي المرأة التي تهجر بيتها، وتترك أطفالها لتساهم في الحياة العامة؟ أم أنها المرأة التي تدرس لتحصل على أرقى الشهادات، وأكبر الدرجات العلمية متجاهلة وظيفتها الأساسية، ورسالتها في الحياة؟

أم أنها المرأة التي تجلس في بيتها لا تفكر في عمل، ولا تساهم في الحياة، وتترك أعباء بيتها وأولادها على زوجها؟

إنَّ المرأة في نظر أم المؤمنين ليست هذه ولا تلك، ولكن المرأة هي التي تعرف حقيقة وضعها، وتقوم بأعباء وظيفتها – وتساهم في حل مشاكل الحياة مع زوجها.

فنراها تقول:

«المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله»[(١)].

ورأت أثر المغزل في يد امرأة فقالت لها:

«أبشري بما لك عند الله ﷻ لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقررتم ليلاً أو نهارًا».

أما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاها الله ﷻ بكل طاقة نورًا حتى ملأت مغزلها، فإذا ملأت مغزلها أعطاها الله ﷻ بيتًا في الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب، ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة،

(١) المصدر السابق ص ١١٨.

وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهي إلى العرش له دوي كدوي النحل، ويعدل عند الله ﷻ منزلة كبيرة.

بلغوا عني النساء ما أقول: ما من امرأة غزلت حتى كسيت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة.

إلى أن قالت: «أبشروا معاشر النساء ما لكن عند الله ﷻ بطاعتكن لبعولتكن، وخدمتكن لأولادكن، أنتم المساكين في الدنيا، والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء، يغفر الله لكن كل ذنب علمتهن، ما خلا الكبائر»[1].

إن أم المؤمنين تهيب بالنساء المسلمات أن يعملن في داخل بيوتهن، والعمل الذي يناسب وظيفتهن.

أما هذا التبذل الرخيص الذي نشاهده اليوم فهي تنهى عنه.

إن المرأة تستطيع عن طريق المغزل أو الوسائل الحديثة «كالتريكو» وخلافه أن تساهم في التخفيف عن ميزانية المنزل، وبذلك تحل الكثير من المشاكل، وهو عمل يقابله أجر كبير، وإن الملائكة تبارك هذا العمل.

والمؤمنون في كل عصر ومصر يشجعون عليه؛ لأنه عند الله عبادة، وعند الزوج مشاركة، وعند الأبناء بر ووفاء، وتسأل أم المؤمنين عن أفضل النساء فتقول:

«هي التي لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء في الصيانة على أهلها».

(١) أعلام النساء: عمر رضا كحالة ص (٣/ ١١٩).

إن المرأة العاقلة التي تأدبت بأدب الإسلام لا تعرف فحش القول، ولا سلاطة اللسان.

فهي عفيفة في قولها، صادقة في حديثها، أمينة على عرضها، وهي من قبل هذا ومن بعده تهتم بزينتها من أجل زوجها، تسر بمظهرها كما تسر بمخبرها، هذه المرأة تعف نفسها، وتصون زوجها، وتجمل الحياة بأخلاقها، وحسن معاملتها لبعلها.

إنه الدستور الطيب الذي وضعته أم المؤمنين للنساء المسلمات وطالبتهن باتباعه، وتنفيذ بنوده، والاقتداء بتعاليم الإسلام؛ فهل تراهن مطيعات ومنفذات؟ نرجو من الله ذلك.

* * *

أم المؤمنين والحياة العامة

لقد كان لأم المؤمنين – بعد وفاة الرسول ﷺ دورها في حياة المسلمين، من ذلك مشاركتها في الدعوة إلى الله، وقيامها بالرواية عن رسول الله ﷺ والإجابة على أسئلة النساء المؤمنات، وتفقيهها في أمور دينهن، وبالجملة فلم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن حياة المسلمين في السلم أو الحرب.

وكان كبار الصحابة يستشير أم المؤمنين في كبريات الأمور التي تجابههم، ولا يقطعون فيها برأي.

من ذلك أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، بخنجره وأحس أنه عما قريب سيفارق الدنيا قال لابنه عبد الله:

«اذهب إلى عائشة، واقرئها مني السلام، واستأذنها أن أقبر في بيتها مع رسول الله، ومع أبي بكر»[1].

فأتاها عبد الله فأعلمها فقالت: نعم وكرامة، ثم قالت: يا بني أبلغ عمر سلامي، وقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً؛ فإني أخشى عليهم الفتنة.

فأتى عبد الله فأعلمه فقال: ومن تأمرني أن أستخلف لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقيًا أستخلفته ووليته، فإذا قدمت على ربي فسألني وقال لي: «من وليت على أمة محمد ؟».

قلت: «أي ربِّ سمعت عبدك ونبيك يقول: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت معاذ بن جبل أستخلفته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟».

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٦٣).

قلت: أي رب سمعت عبدك ونبيك يقول: «إن معاذ بن جبل يأتي بين يدي العلماء يوم القيامة برتوة».

ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد؟ قلت: أي ربِّ سمعت عبدك ونبيك يقول: «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين»[1].

ولكني سأستخلف النفر الذي توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، فأرسل إليهم فجمعهم، وهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف.

إن أم المؤمنين تطالب عمر، وهو في النزع الأخير، أن يعيِّن للأمة خليفة من بعده حتى لا تتفرق بهم السبل، أو تتناوشهم الأهواء، ويصبح بأسهم بينهم شديدًا، وأراد الله بالمسلمين خيرًا وتم اختيار عثمان بن عفان خليفة لهم، واستراح المسلمون لذلك.

ومرت الأيام ومرت الليالي، وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – ترقب أحوال الخليفة الجديد، وترصد أعماله، فوجدت في بعض تصرفاته يخالف ما كان يأمر به الرسول ﷺ والخليفتان من بعده، فأرسلت إليه من يذكره ويحذره.

فكان نتيجة ذلك أن نقص عطاء السيدة عائشة عما كان مقدرًا لها في عهد الخليفة عمر.

وهذا النقص قد يكون سائغًا إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة، ولكنه لا يسوغ، ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التي يحار فيها الإحصاء، وغنائم أفريقيا وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير.

(١) المصدر السابق.

وجاء وفد من الكوفة يتهم الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه بشرب الخمر، فتبرمت بهم حاشية الخليفة، وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل الكوفة.

فقال لهم: أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم، فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه.

ثم أصبح عثمان: فسمع من البيت صوتًا وكلامًا فيه بعض الغلظة، فقال مغضبًا: «أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة؟».

فسمعته فقيل: إنها رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت: «تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل»[1].

وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد، فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء وهذا؟

حتى تصايحوا وتضاربوا بالنعال، ودخل رهط من أصحاب رسول الله ﷺ على عثمان وناشدوه أن يعزل أخاه.

ومما يروى عنها – رضي الله عنها – أنها أخرجت ثوبًا من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: «هذا ثوب رسول الله ﷺ لم يبل، وعثمان قد أبلى سنته»[2].

واستطاعت حاشية عثمان ﷺ أن تعزله عن الرعية، وجعلوه يصم أذنيه عن نصح الناصحين، وتذكير الذاكرين، فما كان منها كما قيل إلا أن أطلقت لسانها فيه، وأعلنت الحرب عليه، حرب التذكير والنصح، ويقال: أطلقت عليه «نعثلاً» وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً[3].

---

(١) أعلام النساء: رضا كحالة (٣/ ٣٢).

(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٠٣)، وراجع الأغاني (٤/ ١٧٨).

(٣) شرح نهج البلاغة لابن الحديد (٢/ ٧٦) ونعثل رجل يهودي طويل اللحية شبهوا عثمان به لطول لحيته، ونحن نستبعد أن يصدر هذا القول من أم المؤمنين، ولكنه، من تزيد الرواة، والله أعلم.

واستمر الحال على ذلك، حتى كانت الفتنة، الفتنة التي حذّر منها رسول الله ﷺ بقوله: «**ستكون فتن كقطع الليل المظلم**».

وقتل عثمان ﷺ ووصل خبر مقتله عائشة -رضي الله عنها- فقالت: أبعده الله قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله، يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان، كما سام أحمر ثمود قومه[1].

ولكن لم تمض إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تردد في أرجاء الأمة الإسلامية أن أم المؤمنين عائشة تطالب بالقصاص من قتلة عثمان، وتحرض الناس على عدم مبايعة الإمام عليٍّ.

كيف تم هذا؟ وما هي المبررات التي دفعت أم المؤمنين على أن تسلك هذا المسلك الوعر؟

إن رواية أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي تقول: إن عائشة – رضي الله عنها – لما بلغها قتل عثمان – وهي بمكة – أقبلت مسرعة، وهي تقول:

«إيه ذا الأصبع لله أبوك أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوًا».

فلما انتهت إلى «سرف» استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي فقالت له: ما عندك؟

قال: قتل عثمان.

قالت: ثم ماذا؟

قال: ثم صارت الأمور إلى خير فبايعوا عليًّا.

فقالت: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا، ويحك انظر ماذا تقول؟

---

(1) انظر في تكذيب هذه الرواية رأى ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ١٨٨).

قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، والله ما أعرف بين لابنيها أحد أولى بها منه، ولا أحق، ولا أرى له نظيرًا في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ فما ردت جوابًا عليه.

لقد كانت أم المؤمنين عائشة تعيب على عثمان مخالفته لسنة رسول الله ﷺ، وتعيين أقاربه وأنصاره في الولايات العامة في الأمصار الإسلامية، وخشيت أن تتحول الخلافة إلى وراثة، وطالبت بتنحية عثمان وعزله .. فلما تم ذلك .. وأسندت الخلافة إلى عليٍّ. لم تتقبل هذا الأمر.. أتنكر على ابن عم الرسول ﷺ شيئًا في خلقه ودينه؟!

إنها أقرب الناس معرفة به وأقدرهم جميعًا للحكم له أو عليه، فلماذا الغضب على الرجل، هو أقرب الناس إلى بيت النبي ﷺ، وزوج ابنته وأبو حفيديه؟

أيكون هذا الغضب يرجع بأسبابه إلى الكلمة التي قالها الإمام في حادث الإفك عندما سأله رسول الله ﷺ، عن رأيه في عائشة، فقال له: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير[1].

فلا ريب أن عليًا ﷺ قد جانبه التوفيق في تلك النصيحة، إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لفظ بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبي ﷺ وأصحابه، ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبي قد أدانها وأنف من معاشرتها، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وأهلها وصمة لا تمحى في زمانها ولا بعد زمانها، وقد يتعدى الأمر عائشة وأهلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذي أفكوا به مطعنًا في صدق الدين ونبيه.

---

(١) ابن كثير (٥/ ٦٤).

وهذا كله ما نحسب عليًا ﷺ قدسها عنه وهو ينصح إلى النبي بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبي وبيته.

وهذه الكلمة التي قالها الإمام على لا تنسى، لأن المرأة قد تنسى كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو أن تحس أن هناك شخصًا آخر رجلاً كان أو امرأة يريد التفريق بينها وبين زوجها.

ولكننا نستبعد أن يكون ذلك هو العامل الأساسي الذي من أجله خرجت السيدة عائشة – رضي الله عنها – لحرب الإمام عليٍّ أو تحريض المسلمين على عدم البيعة له.

وصاحب (العقد الفريد) يقدم لنا رواية مضمونها أن عائشة – رضي الله عنها – قالت: كيف يقتل عثمان بعد أن استتاب، وعزل أقاربه وأنصاره، لقد ترك عثمان كالثوب الأبيض نقيًا من الدنس، ثم عدوا عليه فقتلوه[1].

وعندما قال لها عبيد بن أبي سلمة: «يا أمة إن أول من أمال حرفة لأنت»[2] قالت: قد قلت وقالوا: وقولي الأخير خير من قولي الأول.

أم أنها كانت تريد للخلافة طلحة بن عبيد الله؛ لأنه من بني عمومتها ومن بني تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها. وكان يؤاذره في هذا الأمر الزبير زوج أختها أسماء، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله.

ومما يؤيد هذه الرواية أنها عندما كانت في طريقها إلى مكة لقيت ابن عباس موفدًا من قبيل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه، ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين عليه، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان، وأن يشككهم فيه،

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٥/ ١٠١).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٧).

ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله؛ لأنه «اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإن يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر ﷺ».

قال لها ابن عباس: يا أمة لو حدث – أي اعتزال عثمان– ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا، قالت: أيهًا عنك! لست أريد مكابرتك، ولا مجادلتك[1].

وتضطرب الروايات هنا أشد الاضطراب، وتتباين أشد التباين، ويكاد الوصول فيها إلى رأي أمثل يكون من قبيل المحال.

فلنتابع مع أم المؤمنين رحلتها التي انتهت بمعركة الجمل.

* * *

(١) الطبري (٣/ ٤٣٤).

أم المؤمنين عائشة وموقعة الجمل

أرادت عائشة – رضي الله عنها- إيقاع القصاص بقتلة عثمان، حتى لا يكون قتل الحكام والأمراء – سنة يلجأ إليها العامة – كلما خالفهم أمير أو حاكم. ولأن قتل الأمراء أو الخلفاء على هذه الصورة باب خطير يشيع الفتنة، ويدفع الأطراف جميعًا إلى رفع السلاح، والدخول في معمعة القتال، الأمر الذي يفرق المسلمين ويشتت وحدتهم، ويضعف هيبتهم.

ولبى دعوة عائشة أمهات المؤمنين، وآزرنها في المطالبة بدم عثمان، وإنزال العقوبة بقتلته، وكان رأيهن أن تقصد عائشة المدينة، فلما تحول رأيها إلى أهل البصرة آثرن البقاء على الخروج معها.

وأما حفصة بنة عمر بن الخطاب – رضي الله عنها – فأرادت الخروج مع عائشة، وفاءً للذكرى الجميلة التي ألفت بينهم، وجمعتهم في بيت الرسول ﷺ، وكانت حفصة دائمًا معها تشاركها فيما يعن لها من أمور، وما تدبره من مواقف لأمهات المؤمنين الأخريات.

فعزم عليها أخوها عبد الله بن عمر أن تقعد فقعدت، وبعثت إلى عائشة تعتذر إليها؛ لأن عبد الله حال بينها وبين الخروج.

قالت عائشة: يغفر الله لعبد الله[1].

وأما أم سلمة فلما رأت صنع عائشة وعزمها على الخروج كتبت إلى عائشة: «أما بعد؛ فإنك سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته، وحجابك مضرب على حرمته، وقد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تبذليه، وسكن عقيرتك فلا تضيعيه، الله من وراء هذه الأمة قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك، وقد

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٠).

علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرب بهن إن انصدع، خمرات النساء غض الأبصار، وضم الذيول، ما كنت قائلة لرسول الله، وقد هتكت حجابه الذي ضربه عليك؟

ولو أتيتُ الذي تريدين ثم قيل لي ادخلي الجنة لاستحيت أن ألقى الله هاتكةً حجابًا قد ضربه علي، فاجعلي حجابك الذي ضرب عليك حصنك، فابغيه منزلاً لكِ حتى تلقيه؛ فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه، ولو ذكرتك كلامًا قاله رسول الله ﷺ لنهشتني نهش الحية .. والسلام»[1].

وما كاد يصل هذا الخطاب إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – حتى ذهبت إلى أم سلمة في بيتها، وقالت: ليس مسيري على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين.

فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا بنت أبي قحافة أنتِ أول مهاجرة من أزواج رسول الله ﷺ وأنت كبيرة أمهات المؤمنين – وكان رسول الله ﷺ يقسم لنا من بيتك، وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلكِ.

فقالت عائشة: إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائمًا في شهر حرام، وقد عزمت على الخروج على البصرة، ومعي الزبير وطلحة؛ فاخرجي معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا.

فقالت أم سلمة: إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان، وتقولين فيه القول، وما كان اسمه عندك إلا نعثلاً، وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله ﷺ أفاذكركِ؟

قالت: نعم.

(١) الفائق للزمخشري (١/ ٢٩٠)، والعقد الفريد (٣/ ٩٦).

قالت: أتذكرين يوم أقبل ﷺ ونحن معه، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلي بناحية فأطال فأردت أن تهجمين عليهما فنهيتكِ فعصيتني - فهجمت عليهما - فما لبثت أن رجعتِ باكية.

فقلت: ما شأنك؟

فقلت: إني هجمت عليهما وهما يتناجيان، فقلت لعليّ: «ليس لي من رسول الله ﷺ إلا يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يا ابن أبي طالب ويومي؟».

فأقبل رسول الله ﷺ وهو غضبان، محمر الوجه؛ فقال: «ارجعي وراءك، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي، ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان»؛ فرجعت نادمةً ساقطةً.

قالت عائشة: نعم أذكر ذلك[1].

قالت: وأذكركِ أيضًا كنتِ أنتِ وأنا مع رسول الله ﷺ وأنتِ تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيسًا، وكان الحيس[2] يعجبه، فرفع رأسه وقال: «يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط»، فرفعت يدي من الحيس فقلت: أعوذ بالله ورسوله من ذلك، ثم ضرب على ظهرك، وقال: «إياك أن تكونيها»، ثم قال: «إياك أن تكونيها يا حميراء، أما أنا فقد أنذرتك».

قالت عائشة: نعم أذكر هذا[3].

قالت: وأذكر أيضًا كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ في سفر له، وكان عليٌّ يتعاهد نعلي رسولي الله ﷺ فيخصفهما، ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فنقبت له

---

(١) شرح نهج البلاغة (٢/٧٨) وذكره أيضًا صاحب أعلام النساء (٣/٣٧).

(٢) الحيس: الخلط وهو طعام يتخذ من تمر يخلط بسمن وأقط.

(٣) ونقول: إن بعض هذا - لو صح وقوعه - كافٍ في إقلاع السيدة عائشة عن خروجها، وفي حملها عن الرجوع إلى بيتها.

نعل، فأخذها يومئذ يخصفها، وقعد في ظل شجرة، وجاء أبوكِ ومعه عمر فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب، ودخلا يحادثانه فيما أرادا ثم قالا:

«يا رسول الله، إنا لا ندري قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعًا».

فقال لهما: «أما إني قد أرى مكانه، ولو فعلت لتفرقتم عنه، كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران»، فسكتا، ثم خرجا.

فلما خرجنا إلى رسول الله ﷺ قلت له: وكنت أجرأ عليه منا – من كنت يا رسول الله مستخلفًا عليهم؟

فقال: «خاصف النعل»، فنزلنا فلم نر أحدًا إلا عليًّا.

فقلت: يا رسول الله، ما أرى إلا عليًّا؟!

فقال: «هو ذاك».

فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك.

فقالت: فأي خروج تخرجين بعد ذلك؟

فقالت: إنما أخرج للإصلاح، بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

فقالت: أنت ورأيك.

فانصرفت عائشة عنها، وكتبت أم سلمة بما قالت: ثم ماذا؟ حملت عائشة أم المؤمنين في هودج قد ألبس جلود النمر، ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد.

ثم نادى المنادي: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد أعزاز الإسلام وقتال المحلين، والطلب بثأر عثمان فليتبعنا، ثم خرجت عائشة أم المؤمنين فتبعتها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق، فلم ير يوم كن أكثر

باكيًا على الإسلام أو باكيًا له من ذلك اليوم، حتى دعي ذلك اليوم بيوم النحيب[1].

وأمَّرت عائشة على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكان يصلي بهم في الطريق، وبالبصرة حتى قتل، وخرج معها مروان بن الحكم وسائر بني أمية إلا من خشع، وأخذوا معهم دليلاً يقال له: العرني فسار معهم فكان لا يمر على وادٍ ولا ماء إلا سألوه عنه حتى طرقوا «ماء الحوأب» فنبحتهم كلابها.

فقالوا: أي ماء هذا؟

قال: ماء الحوأب.

فصرخت عائشة بأعلى صوتها، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته، ثم قالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقًا، ردوني تقول ذلك ثلاثًا، فأناخت وأناخوا حولها، وهم على ذلك، وهي تأبى حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد.

فجاءها ابن الزبير فقال: النجاء النجاء فقد أدرككم والله علي بن أبي طالب، فارتحلوا وشتموا الدليل وصرفوه[2].

والتقى الجمعان، وتقاتلوا قتالاً شديدًا وكانت الدائرة على جيش طلحة والزبير، ونصر الله جيش علي بن أبي طالب ﷺ وكان أول عمل قام به أن أصدر أمره بالمحافظة على «هودج» أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها[3].

ثم جهز على عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وألبسهن العمائم، وقلدهن السيوف،

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٨).
(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٤٧٥) وراجع شرح نهج البلاغة (٢/ ٨٠).
(٣) اليعقوبي (٢/ ٢١٣).

وقال لهن: لا تعلمن عائشة أنكن نسوة وأنتن اللاتي تلين خدمتها وحلمها، فلما أتت المدينة قيل لها: كيف رأيت مسيرك؟

قالت: كنت بخير، والله لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً، فعرفها النسوة أمرهن، فسجدت لله شكرًا وقالت: «ما أزددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرمًا، وودت أني لم أخرج، وإن أصابني كيت وكيت، وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان»[1].

وتمر الأيام، وتكر الليالي، وتحاول أم المؤمنين عائشة أن تكفر عن هذا العمل الذي قامت به، وتتوب إلى الله آناء الليل وأطراف النهار، وحاولت أن تعتزل الحياة، وتفر من الناس، وأن تعيش لعبادتها، والتقرب إلى ربها، حتى كان يوم دخل عليها بعض النسوة يخبرنها بقتل على بن أبي طالب ﷺ، فغدت إلى قبر رسول الله ﷺ فلم يبق في المسجد أحد من المهاجرين إلا استقبلها يسلم عليها[2]، وهي لا تسلم ولا ترد السلام، ولا تطيق الكلام من غزرة الدمعة، وغمرة العبرة، وتتعثر في أثوابها، والناس من خلفها حتى أتت إلى الحجرة فأخذت بعضادتي الباب ثم قالت:

«السلام عليك يا نبي الهدى، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا رسول الله، وعلى صاحبيك، يا رسول الله أنا ناعية إليك أحظى أحبابك، وذاكرة لك أكرم أودائك عليك، قتل والله حبيبك المجتبى وصفيك المرتضى، قتل والله من زوجته خير النساء، قتل والله من آمن ووفى، وإني لنادبة ثكلى وعليه باكية حرى. فلو كشف عنك الثرى لقلت: إنه قتل أكرمهم عليك وأحظاهم لديك»[3].

واشتاقت عائشة – رضي الله عنها – إلى الأحبة الذين سبقوها إلى الدار

(١) مروج الذهب (٢/ ١١) والطبري (٣/ ٥٤٧).
(٢) العقد الفريد، وراجع أعلام النساء: عمر رضا كحالة (٣/ ١٠٣).
(٣) تاريخ الطبري والمصدر السابق (٣/ ١٠٣).

الآخرة، وتوعكت فلزمت فراشها – واشتد عليها المرض، وجاء عبد الله بن عباس يستأذن عليها قبيل موتها، وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن فقال لها: هذا عبد الله بن عباس يستأذن عليك.

فقالت: دعني من ابن عباس فإنه لا حاجة لي به ولا بتزكيته.

فقال: يا أمتاه، إن ابن عباس من صالحي بنيك يسلم عليك ويودعك.

قالت: فاذن له، فدخل فلما أن سلَّم وجلس، قال: «أبشري».

قالت: «بم؟»

قالت: «ما بينك وبين أن تلقى محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنت أحب نساء رسول الله إلى الله، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتك ليلة الإيواء فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله أن يتمموا صعيدًا طيبًا، فكان ذلك من سبيلك، وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة، فأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار».

فقالت: دعني منك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيًا[1] منسيًا وبلغ الكتاب أجله، وفارقت روحها جسدها في ١٧ رمضان سنة ٥٧ هـ، وهي ابنة ست وستين سنة، وأمرت أن تدفن من ليلتها.

رضي الله عنها، وأفسح لها في جناته، إنه سميع قريب مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٧٥).

تذييل

سؤال يطرح نفسه أو نطرحه نحن فنقول:

هل من حق المرأة أن تشتغل بالسياسة؟

وهل من مقدورها أن تكون نائبة تمر على بيوت الناخبين والناخبات، وتستقبل في بيتها مؤيديها وطلاب الحاجات؟

وهل من حقها أن تتصعد في مناصب الدولة حتى تتربع على كرسي الوزارة وتدير شئون الديوان؟

وفي النهاية هل يجوز لها أن تكون حاكمة تملك زمام الحكم في الداخل، وتجيش الجيوش وتقود المعارك في الخارج؟

ولعل قائلاً يقول: أليس هذا هو المشاهد في دنيانا المعاصرة؟

أليست هي الآن نائبة ترفع صوتها في مجلس الأمة؟!

ووزيرة تدير شئون الوزارة؟!

وملكة تتربع على كرسي العرش؟!

وإذا كان ذلك كذلك، فكل هذه المناصب من حقها لأنها اكتسبتها، وهي قادرة على أدائها، والقيام بها لأنها مارستها.

ونقول: هناك فرق كبير بين أن تكون نائبة هنا ووزيرة هناك في أمور تبلغ حد الندرة، ولا تتجاوز عدد الأصابع في الغالب، وبين أن يكون هذا هو القاعدة المطردة التي لا تتخلف، والدستور القائم الذي لا محيص عنه، ولا مفر من التسليم به.

وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة نرى أن نوضح الفرق بين الرجل والمرأة في الخلقة والطباع، ثم نبين نوع العلاقة بينهما، وعن طريق ذلك نتعرف على اختصاصات كل منهما، والوظيفة التي أناطه الله بها .. لقد خلق الله الناس ذكرًا وأنثى زوجين على أساس القاعدة الكلية في بناء هذا الكون، وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل، وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانيًا، وليست هينة ولا يسيرة بحيث تؤدى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى، فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني الرجل.

الرجل الذي يقوم بتوفير الحاجات الضرورية، وتوفير الحماية كذلك للأنثى كي تتفرغ لوظيفتها الخطيرة من حمل ووضع ورضاعة، وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينه على أداء وظائفه هذه، وأن تمنح المرأة في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

وكان هذا فعلاً.. ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩].

ومن ثم زودت المرأة فيما زودت به من الخصائص - بالرقة والعطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة - بغير وعي ولا سابق تفكير؛ لأن الضرورات الإنسانية كلها - حتى في الفرد الواحد - لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير - بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية لتسهل تلبيتها فورًا وفيما يشبه أن يكون قسرًا، ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج، ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى - مهما يكن فيها من المشقة والتضحية - ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٨٨].

وهذه الخصائص ليست سطحية، بل هي غائرة في التكوين العضوي

والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة، بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة في تكوين كل خلية، عميقة في تكوين الخلية الأولى.

وكذلك زود الرجل- فيما زود به من الخصائص - بالخشونة والصلابة وبطء الانفعال والاستجابة، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة، لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائمًا لحماية الزوجة والأطفال إلى تدبير المعاش إلى سائر تكاليفه في الحياة؛ لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروى قبل الإقدام وأعمال الفكر والبطء في الاستجابة بوجه عام، وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

ويرى الأستاذ العقاد: أن المرأة تختلف عن الرجل في الكثير من الظواهر والبواطن، في مادة الدم، ونبضات القلب، وعوارض التنفس، وفي سحنة الوجه، وحجم الدماغ، وهندام الجسم، ونغم الصوت، ولا يزعم أن المرأة هي الرجل، والرجل هو المراة إلا من ينكر الحس ويناقض البداهة،؛ فالبداهة والخبرة ترسمان مجالاً للمرأة ... هو القيام على النسل، وما هو بالعمل الهين ولا بالحقير.

وترسمان للرجل مجالاً هو عراك الحياة وشئون السلطان، وما هو بالعمل الكبير عليه، ولا هو بالنصيب الذي يحسد من أجله.

فهل بعد ذلك نقول: إن المرأة من حقها أن تشتغل بالسياسة؟

إننا نقدم هذا المثال من الغرب الذي يعتبر قبلة المخنثين من الرجال، والذين يثيرونها «هوجة» مطالبين بحقوق المرأة السياسية.

جاء في رسالة من باريس أن الفتاة التي تدعي «استانسيبوف» البلغارية قد عينت في وظيفة بالوكالة البلغارية السياسية في واشنطن، وكان لهذه الآنسة شقيق يدرس الشريعة في جامعة «السربون» بباريس، فلما بلغه النبأ أبرق إليها قائلاً:

«إن البيت مركز المرأة، وشغلها هو تربية الأولاد، لا المجادلات السياسية، وتنظيم الموائد والأسرة، لا إبرام المعاهدات والمفاوضات، والخياطة والتطريز، لا عقد المؤتمرات والندوات».

ولذلك فإني بدلاً من أهنئكِ بوظيفتكِ – أنحى عليك باللائمة عن إخلاص نية، وبروح الوفق والحنان.

إن الجزائر المسلمة بعد تحريرها أصبحت المرأة الجزائرية متقدمة متحررة، ولا تقل عن الرجل في شيء.

وفي أحد الأيام جاءت «قاضية» الأحداث متأخرة إلى المحكمة فوجه إليها وكيل النيابة اللوم على تأخرها فردت عليه: «لا تنس إني امرأة، وقد كنت عند «الكوافير».

لا تنس إني امرأة، فهي لا ينسين هذه الحقيقة ... فلماذا يتجاهلها الرجال؟ ويهرجون مع المهرجات، ويطبلون مع «العابثات»؟

إن السياسة تشغل المرأة عن وظيفتها الأساسية وظيفة حضانة الأولاد وتربيتهم، ولهذا نرى ويشاركنا في رأينا هذا كثير من المنصفين المعتدلين، الذين يأخذون الحياة مأخذ الجد والواقع، لا المراهقات الفكرية التي يعيش فيها بعض من يتولون المناصب القيادية أو الإشراف على كثير من وسائل الإعلام في بلادنا العربية والإسلامية.

عن الجهاد .. وهو أحد أركان الإسلام لم يكتب على المرأة، ولم يحرم عليها لم يكتب الجهاد على المرأة؛ لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون، وهي مهيأة لميلاد الرجال بكل تكوينها العضوي والنفسي، ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة سواء – وهي أنفع بالنظر الواسع إلى مصلحة الأمة على المدى الطويل – فالحرب حين تحصد الرجال/ وتستبقى الإناث تدع للأمة مراكز الإنتاج للذرية

تعوض الفراغ، والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال، أو حتى حين تحصد النساء وتستبقى الرجال – فرجل واحد في النظام الإسلامي – وعند الحاجة إلى استخدام كل رخصه وإمكانياته – يمكن أن يجعل نساء أربعًا ينجبن، ويملأن الفراغ الذي تتركه المقاتلة بعد فترة من الزمان، ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد لتعويض ما وقع في المجتمع من اختلال، وليس ذلك إلا بابًا واحدًا من أبواب الحكمة الأهلية في إعفاء المرأة من فريضة الجهاد[1].

لقد صدقت أم المؤمنين عائشة عندما سئلت عن أفضل النساء؛ فقالت: **«هي التي لا تعرف عيب المقال، ولا تهتدي لمكر الرجال، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها، والإبقاء في الصيانة على أهلها»**.

وهناك حكمة صينية تقول:

«البيت الذي تزاول فيه الدجاجة عمل الديك يصير إلى خراب».

* * *

(١) الحجاب .. للمودودي. وفي ظلال القرآن – سيد قطب، والمرأة في التصور الإسلامي عبد المتعال الجابري.



فاطمة

بنت رسول الله ﷺ

رضي الله عنها

قال الرسول ﷺ:

«يا عليُّ، أن الله أمرني أن أزوجك فاطمة وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة».

فقال عليٌّ: رضيت يا رسول الله.

ثم أن عليًّا خر ساجدًا لله شكرًا، فلما رفع رأسه قال رسول الله ﷺ: **«بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب»**. [طبقات ابن سعد ٨: ١٥]

فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها

بنت رسول الله وزوجة الإمام عليٍّ بن أبي طالب، وأم الشهداء.

وأمها خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين، الزوجة المؤمنة الصابرة الحكيمة التي وقفت بجوار زوجها تشد من أزره، وتخفف من همومه، وتقدم له كل ما تملك من ثروة ومال، وعندما نزل عليه جبريل عليه السلام في غار حراء، وعاد إليها يقص ما حدث ويقول: «**لقد خشيت على نفسي**».

استقبلت هذا الخبر بالحكمة والعقل والتدبر، وأخذت تخفف عنه، وتواسيه، وقالت له:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن العم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر»[1].

وزوجها الإمام علي بن أبي طالب ﷺ الذي قال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[2].

وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، والذي كان الرسول ﷺ يقول عنهما: «**هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما**»[3].

ولدت – رضي الله عنها – وقريش تجدد بناء الكعبة قبل مبعث الرسول[4] ﷺ بخمس سنين، وفتحت عينيها على أمر عظيم – أمر الرسالة التي حملها

(١) سيرة ابن هشام (١/٢٥٣)، والإصابة جـ٨، والسمط الثمين ص ١٠.
(٢) صحيح مسلم (١٥/١٧٦).
(٣) صحيح الترمذي.
(٤) موسوعة آل النبي ﷺ د. بنت الشاطئ ص ٥٥٩.

والدها للبشرية كلها، وتحمل في سبيل ذلك الشيء الكثير من أذى قريش، والسخرية به، والتنكيل بأتباعه، وحصاره وذويه وأقاربه في شعب من شعاب مكة قرابة الثلاث سنوات.

لقد وعت فاطمة – رضي الله عنها – في طفولتها المبكرة الحرب التي شنتها قريش على أبيها، فكانت تتبعه إذا خرج، وترافقه إذا عاد، ثم حدث حادث لا تنساه. لقد كان والدها ساجدًا في الحرم وحوله ناس من مشركي قريش، فجاءه عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهره، فلم يرفع ﷺ رأسه حتى تقدمت فاطمة، فأخذت السلى، ودعت على من صنع ذلك، وإذ ذاك رفع النبي رأسه وقال:

«اللهم عليك الملأ من قريش، اللهم عليك أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف»[1].

فخشع المشركون لدعائه، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته، وانصرف إلى بيته، تصحبه ابنته فاطمة.

وتوالت الأحداث، وركبت قريش رأسها، وصبت جام غضبها على المسلمين، وأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وتمزقت القلوب والأفئدة، وتشتت الأحباب.

وفاطمة ترقب كل ذلك، ويحاول عقلها الصغير أن يرتب الحوادث، وتفهم النتائج ويرصد جهاد الرسول ﷺ.

حتى كان يوم فقدت فيه القلب الكبير الذي يعطف، واليد الحنون التي تربت، والفم الباسم الذي كان دائمًا يخفف من جفاف الحياة، ومن قسوة الأعداء، ويحيل الدنيا إلى جنة فواحة بالعطر، زاخرة بالأرج.

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

لقد ماتت أمها خديجة في وقت أشد ما تكون هي في حاجة إليها، وكذلك والدها وأحست فاطمة أن أباها فقد بموتها الشيء الكثير.

إن خديجة لم تكن بالنسبة لأبيها زوجة فحسب، أو امرأة ككل النساء، ولكنها كانت الزوجة الوفية التي تقدر زوجها وتعرف ما عليها من واجبات.

وكانت الأم الحنون العطوف التي يسعدها سعادة أبنائها، وتوفيقهم في أعمالهم، وكانت الصديقة المخلصة، التي يلجأ إليها كلما ضاقت به الحياة، أو آلمه جهل الآخرين ولؤمهم، وكانت.. وكانت.

فهل تستطيع فاطمة أن تقوم بهذا العبء، وتملأ الفراغ الذي تركته والدتها؟ إنها تقدر ظروف أبيها، وتعرف مقدار التبعة الملقاة على عاتقه، فلتكن هي هذا البيت الذي خلا بموت خديجة زهرة فواحة بالعطر – تجفف الدمعة، وتطبب القلب، وتشارك في أعباء الجهاد.

ولكن الرسول ﷺ بعد موت خديجة، لم يعد يأوى إلى بيته إلا في فترات خاطفة، ولم تجد فاطمة فسحة من الوقت لتجلس معه أو تخفف عنه ما يعانيه، ومع هذا أحست أن هناك أمرًا يدبره، ويعد العدة له فما هذا الأمر؟ ولماذا لم يخبرها به؟

إن البشر يكاد يملأ وجهه، والبسمة الحانية عادت ترف على شفتيه كما كانت،. أأذعنت قريش لما بدعوها إليها من نبذ الأصنام وعبادة الرحمن؟ أيمكن أن تستجيب لكلمة التوحيد؟

من يدري إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا هيأ له الأسباب .. ولما لم تصل فاطمة إلى نهاية في تفكيرها انهمكت فيما هي فيه، من عمل البيت وإعداد الطعام، حتى إذا فرغت مما في يديها أخذتها إغفاءة من النوم فلم تستيقظ إلا على صوت طرقات على الباب .. وفتحت عينيها فرأت نور الصباح يملأ

الكون، ولم يكن والدها في مخدعه الذي اعتاد أن يبيت بـه، وعنـدما استفسـرت من الطارق؟

جاءها صوت عليٍّ ﷺ من خلف الباب، يخبرها فيه بهجرة الرسـول ﷺ إلى يثرب، وعليها وأختها أن يعدا أمرهما للحاق به بعد يوم أو يومين.

وهاجرت فاطمة إلى المدينة، واستقرت مع أبيها وسـط قـوم بـذلوا أمـوالهم وأرواحهم رخيصة في سبيل نصرة الرسـول ﷺ ونصـرة دينـه، وأخـذت الحيـاة تصفو بعض الوقت.

واستعادت فاطمة صحتها وقوتهـا، وبـدأ شـبابها ينمـو، وأنوثتهـا تكتمـل، وغدت مطمع الرجال الراغبين في الزواج.

ويتقدم أبو بكر الصـديق ﷺ لصـاحبه رسـول الله ﷺ يطلـب منـه فاطمـة لتكون زوجة له[1].

فقال الرسول ﷺ: «يا أبا بكر انتظر بها القضاء».

فذكر ذلك أبو بكر لعمر.

فقال له عمر: ردك يا أبا بكر ... ثم إن أبا بكر قال لعمر:

«اخطب فاطمة إلى النبي ﷺ فخطبها، فقال له مثل ما قال لأبي بكر: انتظر بها القضاء»، فجاء عمر إلى أبي بكر فأخبره.

فقال له: ردك يا عمر[2].

ثم إن أهل عليٍّ ﷺ قالوا: لعليٍّ بن أبي طالب: «اخطب فاطمـة إلى رسـول الله ﷺ».

(١) السمط الثمين لمحب الطبري ص١٧١.
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٩).

فقال: بعد أبي بكر وعمر؟

فذكروا له قرابته من النبي ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه، فقال: «ما حاجة ابن أبي طالب؟».

قال: ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

قال: «مرحبًا وأهلاً» لم يزده عليهما فخرج عليٌ على أولئك الرهط من الأهل والأنصار الذين ينتظرونه.

قالوا: ما وراءك؟

قال: ما أدري غير أنه قال لي: «مرحبًا وأهلاً».

قالوا: يكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما، أعطاك الأهل، وأعطاك المرحب[1] وتمت خطبة فاطمة إلى عليٍ ﷺ وما لبث أن قدم مهرها، درعًا حطمية كان أعطاها له الرسول ﷺ، وباع بعيرًا بثمانين وأربعمائة درهم.

فقال ﷺ: اجعلوا ثلثين في الطيب، وثلثًا في الثياب، وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «انطلق وادع لي أبا بكر وعمر، وعثمان وطلحة والزبير وبعض الأنصار». قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ:

«الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره من أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته، ونيرهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ إن الله ﷻ جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا، وحكمًا عادلاً، وخيرًا جامعًا، أوشح بها الأرحام، وألزمها الأنام فقال الله ﷻ:

(١) المصدر السابق ص٢١.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1].

وأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب، قال تعالى ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2].

ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليٍّ وأشهدكم أني زوجت فاطمة من عليٍّ، على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك على السنة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع شملهما وبارك لهما وطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[3].

قال أنس: وكان علي ﷺ غائبًا في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها .. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقالوا: «انتبهوا»، فبينما نحن كذلك إذ أقبل عليٌّ فتبسم إليه رسول الله ﷺ وقال:

«يا عليُّ. إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة».

فقال عليٌّ: «رضيت يا رسول الله».

ثم إن عليًا خر ساجدًا شكرًا لله، فلما رفع رأسه قال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب**»[4]. وزفت فاطمة إلى علي ﷺ.

وكان زفافًا مباركًا هادئًا لم تعلق فيها الثريات، ولم تعزف فيه الموسيقى، ولم تتناقله وسائل الإعلام والصحافة، ولم تقدم إليهما مئات التهاني والبرقيات، كما

---

(١) سورة الفرقان: ٥٤.

(٢) سورة الرعد: ٣٩.

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ١٥).

(٤) المصدر السابق (٣/١٦).

يحدث في زماننا هذا، ولم يتخم منزلهما بالتحف النادرة، أو الرياش الفاخرة، أو الأثاث الثمين المطعم بالذهب والفضة، والأصداف الغالية، وإنما كان بيتًا بسيطًا معبرًا.

تحدثت أم أيمن – رضي الله عنها – تعدد أثاث فاطمة، وما حمل لها من جهاز فقالت: «كان جهازها خملة ووسادة أدم حشوها ليف، ورحايتين، سقاء وجرتين»[1].

ومن أول يوم وطئت فيه فاطمة – رضي الله عنها – منزل زوجها، أحست أن عليها واجبًا كبيرًا إزاء زوجها، فهي تعرف ظروفه الاقتصادية، وتعلم دخله، وما تتطلبه الحياة من أعباء وتكاليف، ولم يستطع زوجها أن يستأجر لها خادمًا تعينها على ما تقوم به من العمل الشاق، فحاول أن يساعدها في بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك[2].

حتى ناء كلاهما بما يحمل، فانتهز عليٌ -كرم الله وجهه- عودة النبي ﷺ من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا وقال:

«يا فاطمة لقد شقوت حتى ضاق صدري وقد جاء أبوك بسبي، فاذهبي إليه فالتمسي واحدة تخدمك».

فأجابته وهي تنحي الرحى جانبًا في تعب وكلال: أفعل إن شاء الله .. ثم قامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية، فلما رآها رسول الله ﷺ هش لها وسأل: «ما جاء بك يا بنية؟».

أجابت: «جئت لأسلم عليك»، ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٧٩) وصحيح مسلم (٨/ ٤٨).

ثم عادت من حيث أتت لتنبئ زوجها أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئًا، فقام علي ﷺ وصحبها مرة أخرى إلى بيت رسول الله ﷺ وتولى السؤال عنها فقال:

«يا رسول الله، أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت في يدها، وحملت القربة حتى أثرت في نحرها، فلما أن جاءت الخدم، أمرتها أن تأتيكم فتستخدمها خادمًا تقيها حر ما هي فيه».

لقد مست هذه الشكوى قلب الأب الحنون، وشغلته عن كل شيء حوله، ولكن أيعطي ابنته ما طلبت ويحرم فقراء المسلمين؟

إن فاطمة من أقرب الناس إلى قلبه، بل هي قطعة منه كما كان يردد دائمًا، وأعلم الناس بما تعانيه.

ولكن بجوار هذا مجموعة الفقراء من أهل الصفة الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وانقطعوا للعبادة، ونزل وحي السماء يطلب من النبي الكريم ألا يتحول عنهم، أو يهمل مطالبهم، أو يغفل عن حق من حقوقهم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

إذن هؤلاء أحق من فاطمة ومن علي.

واستراح الرسول ﷺ لهذه النتيجة عندما قال لهما: «لا والله لا أعطيكما، وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن»[2].

(١) سورة الأنعام: ٥٢.
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥).

وانصرفت فاطمة بعليُ - رضي الله عنهما - وأحس الرسول ﷺ أن قلبه ينسحب معهما، ويتبعهما حيث يتجهان، حتى إذا جن المساء، ولف الكون ظلام دامس، اتجه رسول الله ﷺ إلى منزل الحبيبين - ودلف عليهما من الباب، فوجد الزوجين قد اتجها إلى فراشهما، وأوشك الكرى أن يأخذ بمعاقد أجفانهما - وما كادا يشاهدان الرسول ﷺ حتى هبا للقائه فابتدرهما ﷺ قائلاً: «مكانكما»، ثم أضاف في رفق وهو يقدر حالها: «**ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟**».

أجابًا معًا: بلى يا رسول الله .. قال:

«**كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا، وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما، تسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، وتكبران ثلاثًا وثلاثين**».

ثم ودعهما ومضى، بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهي، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التي تغلب المصاعب، وتهزم المتاعب.

ولقد سمع الإمام عليُ بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول: «فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن».

سأله رجل من أصحابه: «ولا ليلة صفين؟»[1].

فأجاب مؤكدًا: ولا ليلة صفين[2].

ثم ماذا؟ هل مرت حياة الزوجين رخية هانئة؟

أكان السرور يرفرف على جنبات البيت الصغير؟ البيت الذي يعاني فيه عليُ فاطمة الكثير من شظف العيش، وضيق ذات اليد؟!

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

البيت الذي تعمره زوجة مرهقة بتبعاته وأعماله، ويدبر شئونه الاقتصادية رجل تملأ قلبه هموم كبار ينوء بها أصلب الرجال؟

الحقيقة - التي يرويها التاريخ - أن رياح الخلاف أوشكت أن تطيح بأمن هذا البيت وسعادته.

لماذا؟ لأن فاطمة - رضي الله عنها - كانت - كما يصفها الرواة - صغيرة السن .. نحيلة العود.. رقية الإحساس.. مرهفة الشعور.

وكان الإمام عليٌّ ﷺ فيه شدة أقرب إلى أن تكون صرامة وخشونة أوشكت أن تكون غلظة، وحزمًا كان يتحول إلى صلابة، وهذه صفات لا تعيب الرجل وهو يضرب في بيداء الحياة، ويصارع تبعاتها الجسام أما في البيت: فالمرأة في حاجة من رجلها إلى يد حانية، تزيل التعب وتخفف الآلام- وخصوصًا مع زوجة كفاطمة لاقت في مستهل حياتها الكثير من المتاعب والصدمات.

حدثوا أنه ﷺ رئي ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته فاطمة بادي الهم والقلق، فامضى وقتًا هناك ثم خرج ووجه الكريم يفيض بشرًا، فقال قائل من الصحابة: «يا رسول الله، دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشرى في وجهك؟» فأجاب عليه الصلاة والسلام:

«وما يمنعني، وقد أصلحت بين أحب اثنين إليَّ؟»[1].

وحدث مرة - كما يذكر الرواة - أن ضاقت الزهراء بما تجد من شدة زوجها وصلابته فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ، فانطلقت وانطلق عليٌّ بإثرها، فقام حيث يسمع كلامهما.

فشكت إلى رسول الله غلظة عليٍّ وشدته عليها فقال:

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٠).

«يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي».

قال عليٌ: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: «والله لا آتي شيئًا تكرهينه أبدًا»[1].

ولكن هل برَّ عليٌ بما وعد؟ وهل حرص على إرضاء زوجه فاطمة؟ ووطن نفسه على احتمال ما كانت تأتيه مما لم يوافق هواه؟

تقول الروايات التاريخية إن الإمام عليًا أراد الزواج من ثانية، وفي حسبانه أن يجري على مألوف عادة قومه في الجمع بين زوجتين أو أكثر، وهو في نفس الوقت يفعل ما أباحه الإسلام من تعدد الزوجات.

ولكن من تكون الزوجة الثانية التي فكر الإمام على ﷺ في مشاركتها في بيت واحد مع بنت الرسول ﷺ؟

أهي ابنة رجل من السابقين إلى الإسلام الملبين داعي الله؟

أم أن والدها كان من هؤلاء الذين استشهدوا دفاعًا عن نصرة الحق؟ أو تكون كريمة أحد الرجال الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم رخيصة في سبيل نصرة الدين، وإعلاء كلمة الله؟

الحقيقة أنها لم تكن ابنة أحد من هؤلاء.

ولكنها كانت ابنة عدو الإسلام الأول ... إنها كريمة أبي جهل.

نعم العدو الأول للدعوة، والذي كان إذا سمع برجل أسلم وتابع محمدًا فيما يدعو إليه أنّبه وأخزاه وقال:

«تركت دين أبيك وهو خير منك؟ لنسفهن حلمك، ولنقبحن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان الذي أسلم تاجرًا قال: «والله لنكسدن تجارتك،

(١) المصدر السابق جـ٨ ص ٢٦.

ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

أتكون ابنة هذا الرجل شريكة لفاطمة في زوجها؟ إن هذا لن يكون ..

ووصل الخبر إلى مسامع الزهراء – رضي الله عنها –فانكسر قلبها، وتألمت نفسها، واتجهت إلى أبيها لتضع أمامه جملة حالها وقالت:

«يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا عليٌّ ناكحًا بنت أبي جهل»[1].

وما كادت فاطمة تنتهي من كلامها – حتى دلف على رسول الله ﷺ بنو هشام بن المغيرة يستأذنون رسول الله ﷺ في تزويج ابنتهم من عليّ؟

وانطلق ﷺ إلى المسجد مغضبًا حتى بلغ المنبر فخطب في جماعة المسلمين فقال:

«**إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإن ابنتي بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها، وإني أتخوف أن تفتن في دينها**»[2]. ثم ذكر ﷺ صهره أبا العاص – وهو من بني عبد شمس لا من بني عبد المطلب كعليّ – فاثنى عليه في مصاهرته إياه أحسن الثناء فقال:

«حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حرامًا، ولكن والله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدًا»[3].

أترى عليًا قد أراد الزواج من بنت عدو الإسلام؟

(١) صحيح الإمام مسلم (١٦/٤).
(٢) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٢٨)، وصحيح الإمام مسلم (١٦/٤).
(٣) صحيح البخاري (٢٩/٥٣٨)، وسنن الترمذي، وسنن أبي ماجه ٩/٥٦ ومسند الإمام أحمد (٤/٣٢٦-٣٢٨).

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل في سبيل الدعوة المحمدية؟

بل كيف هان عليه أن يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب، ويكسر قلبها بزواج كهذا لا يمكن أن يؤول إلا بالرغبة في متاع حس مادي لا يجده لديها؟ لقد كان لزواج «محمد» ﷺ، من نسائه مبرراته الخاصة وظروفه الملجئة، وإلا فما باله ﷺ قد اكتفى بخديجة خمسًا وعشرين سنة، فلم يتزوج عليها حتى ماتت، وقد بلغ الخمسين من عمره، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله، والجهاد في سبيل الدين الجديد يملأ وقته؟

ألا فلتكن بنت أبي جهل من حظ غيره، أما هو، فليس بالذي يحبط جهاده الباسل، فيستبدل بالنبي، أبا جهل بن هشام صهرًا.. وليس هو بالذي يؤذي نبيه وأباه وابن عمه، في أحب بناته إليه، ولن يكون أبو العاص بن الربيع قبل إسلامه، أبر منه ببنت محمد ﷺ، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب، ولا أرعى في مصاهرته للنبي ذمامًا.

وينتهي به المسرى إلى البيت – حيث يجد الزهراء في وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه إلى جانبها صامتًا لا يدري ماذا يقول.

وإذا رآها تبكي همس معتذرًا: «هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة، فمثلك أهل للعفو والمغفرة...».

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب، غفر الله لك يا ابن العم[1].

فلثم أطراف أناملها، ثم راح يروي لها ما كان من حديث المسجد، ويصف لها مشاعره، حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة، وإنكاره أن يتزوج عليٌّ من بنت أبي جهل مع الزهراء، وقسمه ألا يجمع بنت

(١) موسوعة آل النبي ص ٥٩٢.

رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدًا.

واغرقت مقلتا «فاطمة» بالدموع تأثرًا بحب أبيها، وانفعالاً بموقفه ثم قامت للصلاة[1].

ومرت الأيام بالزوجين الحبيبين هادئة ناعمة، وتخلصت فاطمة الزهراء مما كانت تعانيه، وتلاشت المسحة الحزينة التي كانت تملأ حياتها، وتجعل حياة البيت مهددة بالبوار والانفصال، وأقبل الإمام على زوجته يسكب بين يديها كل صنوف المحبة والوفاء.

ولم يمض عام على حادث الجفوة الذي تمثل في رغبة عليٍّ في الزواج من أخرى حتى كانت الزهراء تضع مولودها الأول الحسن، وسعى البشير إلى أبيها النبي بالنبأ السعيد، فخف إليه مشوقًا فرحًا، وحمل وليدها بين ذراعيه، وتلا الآذان في مسمعه.

وعمت المسلمين فرحة غامرة بمولد الحسن، وتصدق جده ﷺ على الفقراء من أهل المدينة بزنة شعره فضة[2].

وكان لوجود هذا الزائر الجديد في منزل فاطمة أثره الكبير في تدعيم حياة الزوجين والتقائهما دائمًا معًا على بكائه وسروره، نومه ويقظته، تدليله وتطبيبه.

وما كاد يمضي على هذا النبأ السعيد نبأ مولد الحسن عام أو بعض عام حتى ولدت فاطمة – رضي الله عنها –«الحسين» وسرَّ الرسول ﷺ بهذين الحفيدين يملأن حضن أمهما الزهراء، ويدخلان الفرحة والأمل في قلب عليٍّ وكان الرسول يدعوهما دائمًا ابنيه، فعن أنس ابن مالك ﷺ أنه ﷺ كان يقول

---

(١) موسوعة آل النبي د/ عائشة عبد الرحمن ص ٥٩٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٣٨٤).

لفاطمة – رضي الله عنها: «ادعي لي ابني»، فإذا ما جاءا إليه شمهما وضمهما.

وعن أسامة بن زيد أنه قال:

«طرقت باب النبي ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو؟ فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟».

فكشفه فإذا الحسن والحسين، وقال: «**هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما**»[1].

ومن أجل هذا الحب الكبير الذي ملأ قلب الرسول ﷺ كان دائمًا يذهب إلى بيت فاطمة، ويوصيها بهما خيرًا.

وحدث في إحدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس، والحسن يبكي، ويطلب طعامًا فلم يهن على الأب أن يوقظ العزيزين النائمين، بل أسرع إلى غنمه كانت تقف في ساحة الدار، فحلبها وسقى «الحسن» من لبنها حتى ارتوى.. صدق ربي في وصف رسوله الكريم:

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم: ٤]، إن بكاء الطفل آلمه، ووجد الوالدين نائمين، ولا يوقظهما بكاء الطفل، فهما إذن في تعب شديد، جراء ما يقومان به طوال يومهما من كد وتعب، وهو نبي الرحمة، كما عبر عن نفسه: «**إنما أنا رحمة مهداه**»، نعم رحمة أهداها الله سبحانه وتعالى في صورة هذا النبي الكريم، وهذه الرحمة، تمسح دمعة على خد الصغير، وتواسي القلوب المحرومة من لقمة تسد الرمق، أو خرقة تستر الجسد.. وتخفف عن المكروبين والمصابين بعض ما يقع عليهم من قسوة الحياة، وهي أشد ما تكون رحمة وحنوا لهؤلاء الأطفال الصغار الذين لم يعرفوا بعد من أمر شئونهم شيئًا.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٣٩١) ورواه الترمذي في سننه.

حتى إذا مرَّ مرة أخرى ببيت عليٍّ وهو متعجل، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين، فدخل مسرعًا ليقول لابنته معاتبًا:

«**أوما علمت أن بكاءه يؤذيني؟**»[1].

وشب الحسن والحسين، وكان المسلمون كثيرًا ما يشاهدون الرسول ﷺ حاملاً أحد حفيديه على كتفه، حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة وضعه إلى جانبه في رفق، وأقبل يؤم القوم، حتى كان يوم أطال الرسول ﷺ السجود على غير عادته، فلما قضيت الصلاة قيل له:

«يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يقضي حاجته»[2].

وفي يوم وقف الرسول ﷺ يخطب في المسلمين، فجاءه الحسن والحسين، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل النبي ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال يخاطب القوم: «صدق الله: ﴿**أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾[3] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما.

ولم ينس المسلمون صورة الرسول ﷺ، هو آخذ بكتفي الحسين، وقدماه على قدمه ﷺ يرقصه قائلاً: «ترق، ترق» فما يزال الصبي يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده، فيقول له: افتح فاك فيفتحه، ويقبّله ﷺ، وهو يقول: «**اللهم أحبه، فإني أحبه**»[4].

أ وقد خرج يومًا في نفر من صحابته إلى طعام دعوا إليه، فإذا بالحسين في

---

(١) موسوعة آل النبي – د. بنت الشاطئ ص ٥٩٦.
(٢) موسوعة آل النبي – د. بنت الشاطئ ص ٥٩٩.
(٣) سورة الأنفال: ٢٨.
(٤) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٩٥).

الطريق يلعب مع غلمان من أترابه، فتقدم الرسول – أمام القوم وبسط يده محاولاً أن يمسك بحفيده، والغلام يفرُّ هاهنا وها هنا، فما زال – عليه الصلاة والسلام – يضاحكه حتى أخذه، فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، ثم قبَّله وقال:

«**حسين مني وأنا من حسين؟ أحب اللهم من أحب حسينا**»[1].

ثم ماذا؟ ولدت فاطمة في العام الخامس طفلتها الأولى فسمَّاها رسول الله ﷺ «زينب». وفي العام السابع ولدت طفلتها الثانية فسمَّاها رسول الله ﷺ «أم كلثوم».

وعاش البيت السعيد عيشة هنيئة طيبة، الزوج يحرص على سعادة زوجته، والأخرى تبادله نفس الإحساس، وتشاركه فيما يعن له من أمور، وتقوم بأعمال بيتها على خير قيام.

حتى كان يوم وفاطمة في بيتها ترعى أطفالها، وترتب شئون مملكتها الصغيرة، وتنتظر عودة عليٍّ الذي خرج لبعض حاجته.

وإذا برسول من قبل أبيها يقول: إن رسول الله ﷺ يريد فاطمة، فخرجت مسرعة إلى بيت أبيها.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كن أزواج النبي ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحب بها، فقال: مرحبًا يا ابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت.

فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين.

---

(١) موسوعة آل النبي ص ٦٠٠.

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لكِ رسول الله ﷺ؟

قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سره[1].

قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؟

فقالت: أما الآن فنعم أما حين سارني في المرأة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وأنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك، قلت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية، فقال: يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟

قالت: «فضحكت ضحكي الذي رأيت»[2].

ثم انصرفت فاطمة إلى دارها، وقلبها لا يطاوعها على فراق أبيها، ولكن شجعها هو على ذلك لترعى أطفالها، وتباشر أمور بيتها، وأنه الآن أصبح صحيحًا معافى.

ثم مرت الأيام بطيئة سوداء، وذهبت لعيادته فرأته يتحامل على نفسه ويتجمل بالصبر، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته، ولكن ما كاد يبلغ بيت «أم المؤمنين ميمونة بنت الحارثة الهلالية» حتى اشتد به الوجع، فدعا زوجاته إليه، واستأذنهم في أن يمرض في بيت عائشة.

أتستطيع فاطمة أن تفارق أباها، وهو في هذه الحالة؟ أيطاوعها قلبها على ذلك؟

إنها حتى لو أراد لها الرسول ﷺ ذلك، فإنها لا تستطيع، وأقامت بجواره

(١) صحيح الإمام مسلم (١٦/ ٧٢٦).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٦)، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٧).

تمرض وتعني بشئونه، وتتكلف الصبر، وتدعو الله خالصة مؤمنة أن يخفف عن أبيها مما هو فيه.

ولكن صبرها نفد عندما اشتد الوجع به، ورأته يأخذ الماء بيده، ويجعله على رأسه، وهو يقول: «واكرباه».

فقالت بصوت يقطع الأفئدة، ويدمي القلوب: «واكربي لكربك يا أبتاه».

فرَّد عليها، وهو يرنو إليها في عطف وحنو: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»، وبلغ الكتاب أجله، ولحق محمد ﷺ بالرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

إن وفاة الرسول ﷺ هزت نفوس المسلمين هزًّا عنيفًا وأثرت فيهم تأثيرًا قويًا.

ولا أدل على ذلك من قول عمر ﷺ عندما بلغه الخبر: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن إنما عرج بروحه كما عرج بروح موسى ﷺ، لا. لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، يقول ابن عباس: إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: إجلس، فأبي عمر أن يجلس، فقال: إجلس، فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه، وتركوا عمر، فقال:

«أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت».

قال الله: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[1].

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

قال: والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية إلا حين تلاها أبو بكر ﷺ.

قال: فتلقها منه الناس كلهم فما تسمع بشرًا إلا يتلوها.

قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقدت حتى والله ما تُقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

وكأن هذا الحادث المفجع، رجهم من الداخل رجًا عنيفًا واختلف المسلمون في حقيقته بين مصدق ومكذب.

أمات رسول الله ﷺ؟!

أتنتهي حياته بهذه السهولة؟!

إن هذه نهاية كل حي، وسبحان الحي الباقي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾[1].

لقد بلغ محمد بن عبد الله رسالة ربه، وأدى ما عليه من أمانة تجاه أمته، ونزل قول الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾[2].

ولكن أين حجى العقول الذي نزل بها هذا المصاب وفي وسعها أن تفكر؟

وأين استقر الإيمان الذي كان يملأ القلوب حتى يوقظ، ويثبت في هذا الفادح الكبير؟

(١) سورة الأنبياء: ٣٤.

(٢) سورة المائدة: ٣.

لقد استمر المسلمون على ذلك حتى خرج عليهم الرجل الذي أمره الرسول ﷺ أثناء مرضه – أن يؤم المسلمين – وكأن هذا إيذانًا من الله ورسوله. إن أبا بكر هو الرجل الذي بمقدوره أن يرد المسلمين إلى صوابهم، ويعيد الشاردين إلى ساحة الإيمان، ويوقي الجزيرة العربية من الهلاك والبوار.

وبويع أبو بكر بالخلافة، وشغلته أحداث الردة عن نفسه، وعن أقرب الناس إليه، واتجه بكليته إلى الله، وأعلن الحرب على هؤلاء المارقين الخارجين من ربقة الإيمان.

وأرسلت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنه تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر.

فقال أبو بكر، إن رسول الله ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد في المال**»[1].

وإني والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، ولست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

ولما أجمع أبو بكر على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ من فدك، وبلغ ذلك فاطمة، لبست خمارها على رأسها، وجاءت لأبي بكر قائلةً: «الآن تزعمون أن لا إرث لنا؛ ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[2].

فأجاب أبو بكر فقال: «**يا ابنة رسول الله قد كان ﷺ بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا وعلى الكافرين عذابًا أليمًا**».

(١) السمط الثمين ص ١٨١، وطبقات ابن سعد (٨/٢٨).
(٢) سورة المائدة: ٥٠.

وأنتم لا يحبكم إلا العظيم السعادة، ولا يبغضكم إلا الردئ الولادة، وأنتم عترة الله الطيبون، وخيرة الله المنتخبون، على الآخرة أدلتنا، وباب الجنة لسالكنا، وأما منعك ما سألت، فلا ذلك لي، وأما فدك وما جعل لك أبوك؛ فإن منعتك فأنا ظالم، وأما الميراث فقد تعليمن أنه ﷺ قال: «**لا نورث، ما أبقيناه صدقة**».

قالت: إن الله يقول عن نبي من الأنبياء: ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾[1].

وقال: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾[2].

فهذان نبيان، وقد علمت أن النبوة لا تورث، وإنما يورث ما دونها فما لي أمنع إرث أبي؟ أأنزل الله في الكتاب إلا فاطمة بنت محمد فتدلني عليه فاقتنع به ؟!

فقال: يا بنت رسول الله، أنت عين الحجة، ومنطق الرسالة لا يدلي بجوابك ولا أدفعك عن صوابك، ولكن هذا أبا الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت وأنبأني بما أخذت وتركت.

قالت: «فإن يكن ذلك كذلك فصبرًا لمر الحق، والحمد لله إله الحق»[3].

وفي شرح ابن أبي حديد: أن فاطمة لما كلمت أبا بكر بكى، ثم قال: يا ابنة رسول الله، ما ورث أبوك دينارًا ولا درهمًا وأنه قال: «إن الأنبياء لا يورثون».

فقالت: إن فدك وهبها لي رسول الله ﷺ.

قال: فمن يشهد بذلك؟

(١) سورة مريم: ٦.

(٢)سورة النمل: ١٦.

(٣) بلاغات النساء، وراجع فتح البلدان للبلاذري.

فجاء عليٌ بن أبي طالب فشهد، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضًا، فجاء عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله ﷺ كان يقسمها.

فقال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله ﷺ، وصدق عليٌ وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف وذلك أن مالاً لأبيك كان رسول الله ﷺ يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله؛ فما تصنعين بها؟

قالت: أصنع بها كما كان يصنع بها أبي.

قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك.

قالت: الله لتفعلن.

قال: الله لأفعلن.

قالت: اللهم أشهد، وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك ثم كان عثمان كذلك ثم كان عليٌ كذلك[1].

ولكن الكثيرين من الرواة ينكرون رواية ابن أبي الحديد، ويقولون: إن فاطمة خرجت مغضبة .. ومما يؤيد ذلك، هذه الرواية التي بين أيدينا وخلاصتها: أن عمر قال لأبي بكر: انطلق بنا إلى فاطمة، فإنا قد أغضبناها، فانطلقا جميعًا فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليًّا فكلماه فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط، فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام.

فتكلم أبو بكر فقال:

«يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إليَّ من قرابتي، وإنك

(١) نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد.

لأحب إليَّ من عائشة ابنتي، ولوددت يوم مات أبوكِ أني مت، ولا أبقى بعده، أفتراني أعرفك، وأعرف فضلك وشرفك، وأمنعك حقك، وميراثك من رسول الله إلا إني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: «**لا نورث، ما تركناه فهو صدقة**».

فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به.

قالا: نعم.

قالت: ناشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله يقول: «**رضاء فاطمة من رضائي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني**»[1].

قالا: نعم. سمعناه من رسول الله ﷺ.

قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني، وما أرضيتماني، ولأن لقيت النبي لأشكونكما إليه.

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه، وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي، حتى كادت نفسه تزهق، وهي تقول: «والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها»، ثم خرج أبو بكر باكيًا، فاجتمع عليه الناس؛ فقال لهم:

«**يبيت كل رجلٍ منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله، وتركتموني، وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي**».

قالوا: «يا خلافة رسول الله. بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة»[2].

---

(١) وفي صحيح مسلم: فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها (١٦/ ٣).

(٢) كتاب أعلام النساء ص ١٢٣، ١٢٤.

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ وماذا كان موقف أبي بكر وعمر منها؟

لقد مرضت فاطمة، واشتد عليها المرض، وبقيت في بيتها فترة لا ترى، ولكن أخبار مرضها وصلت إلى أسماع خليفة رسول الله ﷺ فأسرع يستأذن عليها.

فقال لها الإمام عليٌ رضي الله عنه: «هذا أبو بكر على الباب، فإن شئت أن تأذني له»، قالت: «وذلك أحب إليك؟»، قال: نعم.

فدخل عليها، واعتذر إليها، وكلمها فرضيت عنه[1].

وفاة فاطمة رضي الله عنها

اشتد المرض على الزهراء رضي الله عنها وشكت إلى أسماء بنت عميس نحول جسمها، وقالت: «**أتستطيعين أن تواريني بشيء؟**».

قالت: إني رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة، ويشدون النعش بقوائم السرير، فأمرتهم بذلك، وعمل لها نعش قبل وفاتها، فنظرت إليه وقالت: «**سترتموني ستركم الله**».

وقالت قبيل وفاتها: يا أمة اسكبي لي غسلاً، فسكبتها فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم قالت: «ائتني بثيابي الجدد»، فأتتها بها فلبستها، ثم قالت:

«**يا أمة إني مقبوضة الساعة، وقد اغتسلت؛ فلا يكشفن لي أحد كتفًا**»[2].

ثم توفيت – رحمها الله – وكان ذلك ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة ١١ هـ، وهي ابنة تسع وعشرين سنة أو نحوها[3].

إلى جنة الخلد يا حبيبة رسول الله، ويا ابنة أكرم الخلق على الله.

(١) أعلام النساء ص ١٣٠، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٢٧).
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٨٩٩).

تذييل

كيف نحافظ على دعائم الأسرة المسلمة فلا تتصدع؟

وعلى سعادتها فلا تتبدد؟

وعلى أمنها فلا يتبخر؟

الحقيقة أن السعادة لن توجد بالكامل إلا إذا تلقت الفتاة في بيت أبيها حسن معاملة زوجها، وشاهدت بعينها أسس الاحترام المتبادل بين أبيها وأمها، هذا أولاً.

وثانيًا: أن يتلقى الزوج المبادئ الأولية لحسن معاملة الزوج لزوجته، على يد والده عندما يشاهده يحسن معاملة زوجته، يعودها إن مرضت أو ضجرت، ويخفف عنها إن تعبت أو تألمت، ويشاركها في أعمال بيتها ورعاية أبنائها إن ثقلت عليها الأعباء أو كثرت عليها المطالب.

ثالثًا: أن يلتزم كلٌ من الزوجين بتعاليم الإسلام تجاه الآخر، وأن يقتدي الرجل بأعمال الرسول ﷺ في بيته وأن تتبع الزوجة منهج أمهات المؤمنين في معاملة الرسول ﷺ.

ومن الأشياء التي لا تبلى ولا يمكن أن تنسى على مر الأيام تلك الوصية الغالية التي قدمتها امرأة عوف بن محلكم الشيباني إلى ابنتها عندما زفت إلى ملك كندا.

قالت الأم: أي بنية إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبدًا، واحفظي له عشر خصال يكن لكِ ذخرًا.

أما الأولى والثانية: فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء والصابون أطيب الطيب المفقود.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالعناية ببيته وماله، والرعاية لنفسه وحشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تفشى له سرًّا ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سرَّه لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان حزينًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لكِ إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما يكون لكِ مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك.

إن هذه الوصية في الحقيقة تعتبر بحق دستورًا للأسرة لو سارت عليه كل فتاة فإنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة في الحياة الزوجية إلا أشارت إليه.

لقد أمرتها بطاعة زوجها والاستماع له، وقد حثَّ الرسول ﷺ على هذه الطاعة بقوله: «ثلاثة لا تمسهم النار:

المرأة المطيعة لزوجها.

والولد البار بوالديه.

والعبد القاضي حق الله وحق مولاه».

وقال - عليه الصلاة والسلام- لأم المؤمنين «أم سلمة»: «إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها، وحركت المغزل، كانت كأنها تسبح الله سبحانه وتعالى».

وأمرتها أن تتزين لزوجها، وأن تتجمل له، وبينت لها أساليب الجمال ووسائله، قالت: «الكحل أحسن الحسن، والماء والصابون أطيب الطيب».

والرسول ﷺ يقول: «**جهاد المرأة حسن التبعل** «**أي: طاعة البعل والتزين له**» **وقيل له: أي النساء أفضل؟**».

فقال ﷺ: «التي تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر».

وأمرتها بالقناعة: والقناعة في الأسرة دعامة من دعائم السعادة ومرهم يزيل الجروح التي تتعرض لها أيام أزماتها المالية والاقتصادية، ويقال: إن رجلاً صالحًا همَّ بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره، ولم يدع لك نفقة؟

فقالت: زوجي – منذ عرفته – عرفته أكالاً، وما عرفته رزاقًا، ولي رب رزاق، يذهب الأكال ويبقى الرزاق.

وأمرتها بالمحافظة على ماله والحرص عليه والرسول ﷺ يقول: «**لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت – عن رضاه – كان لها مثل أجره، وإن أطعمت – بغير إذنه- كان له الأجر، وعليها الوزر**»[1].

وقالت امرأة: يا رسول الله، إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا، فما يحل لنا من أموالهم؟

---

(١) أخرجه أبو داود، والبيهقي من حديث ابن عمر.

قال: «**الرطب تأكلنه وتهدينه**»[1].

ولقد كانت السيدة فاطمة الزهراء مثال الزوجة المطيعة الصابرة، عملت في بيتها حتى كلت يداها، وكان زوجها يلاحظها، وهي تقوم بأشق الأعمال وأرهق الأمور .. ولم يستطع أن يحضر لها خادمًا تشاركها في أعباء البيت، ولم يقل أحد أنها شكت أو تألمت.

ولم يحدثنا التاريخ أنها تزمرت، أو حدثت أباها بما تعانيه في بيت زوجها، حقًا إنها ذهبت إلى أبيها تطلب منه أن يعطيها إحدى السبايا، ولكن ذلك كان بإيحاء من زوجها عليٍّ .. وحتى بعد أن ذهبت إلى الرسول ﷺ لم تستطع أن تلقي أمامه بشكايتها – فعادت من حيث أتت.

وكانت أمًّا فاضلة، ربت فأحسنت التربية، وقامت النهار، وسهرت الليل حتى قدمت للإنسانية خيرة شباب أهل الجنة الحسن والحسين- رضوان الله عليهما.

فرضي الله عن الزهراء ابنة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنها زوجة مطيعة صابرة ورضي الله عنها أمًّا قامت على تربية أولادها وحسن تنشئتهم وأمًّا أجدر المؤمنات المسلمات في كل عصر ومصر أن يسرن سيرتها، ويسلكن مسلكها في حسن التبعل لزوجها وفي المحافظة على أبنائها.

وفق الله الجميع إلى ما فيه خير الأمة الإسلامية – وهدى نساءها إلى الطريق السليم – طريق القرآن نهج الرسول ﷺ.

* * *

---

(١) رواه أبو داود.



أم المؤمنين

زينب بنت جحش

رضي الله عنها

قال الرسول ﷺ:

من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من فوق سبع سموات

وتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧].

أم المؤمنين زينبُ بنتُ جَحش

حفيدة عبد المطلب بن هاشم وابنة جحش بن ركاب بن يعمر، يصمت التاريخ فلا يتحدث عنه من قريب أو بعيد.

وأمها: أميمة بنت عبد المطلب التي أطعمها رسول الله ﷺ أربعين وسقًا من تمر خيبر[1].

وخالها: حمزة بن عبد المطلب الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «**حمزة سيد الشهداء، ولولا أن تجد صفية لتركت دفنه حتى يحشر في بطون الطير والسباع**»[2].

وأخوها: عبد الله بن جحش، حامل أول لواء عقده الرسول ﷺ لحرب المشركين، وقيل: إن عبد الله أول من سنَّ الخمس من الغنيمة للنبي ﷺ من قبل أن يفرض الخمس، ثم أنزل الله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ باللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وصفتها كتب التاريخ بأنها كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش، وكانت معتزة بهذا الجمال، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع، حتى لقد سمعت تقول: «أنا سيدة أبناء عبد شمس»[4].

سمعت بدعوة الإسلام من أخيها عبد الله بن جحش، فآمنت وحسن

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٣٧٢).
(٣) سورة الأنفال: ٤١.
(٤) السمط الثمين للطبري ص ١٠٧.

إسلامها، وتخلصت من عادات الجاهلية جملة، واتجهت إلى ربها خالصة مؤمنة، وعاشت حياتها تفقه نفسها، وتتزود من تعاليم ربها، وتردد خلف أخويها بعض آيات القرآن الكريم – التي كان ينزل الوحي بها الفينة بعد الفينة – طيبة الخاطر، هادئة النفس، خالصة القلب، للنور الغامر الذي انطلق من دعوة الإسلام، وأخذ يلف أرجاء مكة، فتلقفته القلوب، وعاشت له النفوس المؤمنة.

حتى كان يوم، أمر فيه الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب قاعدة الإسلام الجديدة، فتأهبت زينب للهجرة مع أخويها عبد الله وأحمد للفرار بدينها مع الصحبة المؤمنة إلى مدينة الإسلام الجديدة ... واستقر المقام بالمؤمنين حول رسولهم الكريم بالمدينة، بعد أن آخى الرسول بينهم وبين الأنصار، وتم بناء المسجد النبوي، تلك الجامعة العتيقة التي خرجت فقهاء الصحابة، وقادة المسلمين في كل شئون الحياة ... فأين زينب بنت جحش في هذه الحياة الزاخرة بالأمل. الفواحة بالعطر، الداعية إلى نشر دين لله في أرجاء المعمورة؟

أكانت بمعزل عن تلك الحياة؟

أكانت بعيدة عن الصف الإسلامي الأول، وهم يطوعون حياتهم الجديدة لحمل المهمة الكبيرة – مهمة نشر الإسلام وتوضيح معانيه – وترجمة مبادئه إلى أفعال حية وسلوك قائم يعمر دنيا الناس .. ويملأها بالطمأنينة والأمن؟

الحق يقال: أنها لم تكن بمعزل عن تلك الحياة.

وكيف يكون ذلك، والرسول ﷺ اختار لها دورًا مهمًا في إقامة دعائم الإسلام في دنيا الناس؟

نعم لقد اختيرت فتاة بني هاشم لتكون عاملاً جوهريًا في تحطيم الفوارق الموروثة في الجماعة المسلمة؛ ليعود الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وكان الموالي وهم الرقيق المحررة طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة[1] مولى رسول الله ﷺ الذي تبناه وعاش حياته معه، وفضّله على أبيه وأهله.

فأراد الرسول ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بين الناس، وأن يضرب المثل العملي في ذلك، بتزويج أقرب الناس إليه – لمولاه زيد بن حارثة – حتى يسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته.

وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة حسنة، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق.

وانطلق الرسول ﷺ ليخطب على فتاه زيد، فدخل على زينب، وأحاطها بما يريد[2]. وأخذت الفتاة بما سمعت من رسول الله.

أيمكن أن يحدث هذا؟ إنها أسلمت لربها، والتزمت بتعاليمه التي تدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس. وهذا كله حق وصدق، ومع هذا فلكل فتاة أمنيات تملأ حياتها.، وتعيش في وجدانها، وتنتظر يومًا تتحقق فيه تلك الأمنيات، ولم يكن زيد من أمنياتها في يوم من الأيام.

وتساءلت – مرة أخرى بينها وبين نفسها: أتتزوج زيدًا؟

إن الإسلام يشترط التكافؤ في الزواج ... أيكون هذا المولى كفؤًا لها؟

دارت كل هذه الخواطر المتضاربة بمخيلتها، والرسول ﷺ واقف أمامها ينظر كلمتها.

---

(١) راجع زيد بن حارثة في الجزء الأول من كتابنا رجال أنزل الله فيهم قرآنًا.

(٢) راجع تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** [الأحزاب: ٣٦].

ونطقت أخيرًا فقالت: يا رسول الله لست بناكحته!!

لقد كرهت زينب هذا الزواج، وأكدت رفضها للرسول ﷺ بقولها: **«لا أتزوجه أبدًا، وأنا سيدة أبناء عبد شمس»**[1].

ولكن الرسول ﷺ قال: «بل فانكحيه».

قالت: يا رسول الله، أؤامره في نفسي؟

وبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا﴾**[2].

قالت: قد رضيته يا رسول الله منحكًا؟

قال: نعم.

قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي.

ويرى بعض المفكرين الإسلاميين: أن الموافقة كانت مبنية على أساسين:

الأول: امتثال أمر الله وطاعة رسول الله ﷺ فيما رغب فيه وأمر به.

الثاني: أن زيد بن حارثة كان يدعى زيد بن محمد، فخفف ذلك عنها إلى حد كبير؛ إذ قالت: ومن أعز من زيد بن محمد؟

ولهذا استمرت العشرة بيهما في بداية الأمر حتى أبطل الله التبني، فصار يقال لزيد: زيد بن حارثة بدلاً من زيد بن محمد، ومن هنا نشأت بينهما جذور الخلاف، وأخذت تترفع على زيد، وقد فطن زيد لهذا الأمر بلباقة، ولم تكن نفسه الكريمة هينة عليه، فحاول التخلص منها وعدم إزعاجها أو إمساكها على

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠١).

(٢) سورة الأحزاب: ٣٦.

غير رضا أو عشرة زوجية حميدة أخذًا بآداب الإسلام؛ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٢٣١]، ولقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن زينب مكثت عند زيد ما يقرب من سنة، ثم ساءت العلاقة بينهما، فذهب زيد إلى رسول الله ﷺ يستشيره في طلاقها، ويشكو إليه أمرها، وأبدى رسول الله نصحه لزيد أن يمسك زينب لعل العلاقة معها تتحسن؛ فقال له: «يا زيد[1] ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾[2].

ولكن إرادة الله غالبة، وهو الذي بيده مصائر الأمور، فلا بدَّ أن تجري الأمور وفق التوجيه الرباني؛ لأن زواج زيد بن حارثة بزينب كان في باطن الأمر تشريعًا، ويستأنس لذلك بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3].

وقد أصبحت حياة الزوجين – زيد وزينب – لا تطاق، ولم يكن لهما بد من الفراق، وصمم زيد على فراق زوجته فطلقها، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى منها وطره، ولم يبق له رغبة في إقامة العلاقة الزوجية معها؛ لأنه كان كريم النفس، ولا يريد أن يبني سعادته على تعاسة الآخرين.

وقد لمس من زينب أنها تعيش في قلق واضطراب في حياتها الزوجية، ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها، وانتهى زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أي تدخل خارجي بينهما مما يسبب فساد العلاقة الزوجية[4].

وزينب ليست الأولى من زوجات زيد ولا الأخيرة، فقد تزوَّج قبلها بأم

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩١).
(٢) سورة الأحزاب: ٣٧.
(٣) سورة الأحزاب: ٣٦.
(٤) مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش – د/ زاهر عواض الألمعي ص٦٩.

أيمن مولاة رسول الله ﷺ فولدت له أسامة بن زيد، وتزوج بعد زينب من كرائم نساء قريش، وقد أورد الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة زيد بن حارثة ما نصه: «وقال ابن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس لما تبنى رسول الله ﷺ زيدًا زوَّجة زينب بنت جحش، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وزوجه النبي ﷺ قبل ذلك مولاته أم أيمن فولدت له أسامة.

ثم لما طلق زينب زوجه أم كلثوم بنت عقبة، وأمها أروى بنت كريز، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب، ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير»[1].

خطبة النبي ﷺ زينب لنفسه

روى الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذكرها عليَّ. قال: فانطلقت، فقلت: يا زينب أبشري أرسل رسول الله ﷺ يذكركِ.

فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي، وقامت إلى مسجدها[2].

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله: «وهذا أيضًا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرًا بغير رضاه، وفيه أيضًا اختبار ما كان عنده منها، هل بقى منه شيء أم لا؟»[3].

ويقول ابن سعد: أخذت رسول الله ﷺ غيمة فسري عنه، وهو يبتسم ويقول: «من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء؟ وتلا رسول الله ﷺ[4]:

(١) الإصابة لابن حجر (١/ ٥٤٤٦).
(٢) مسند الإمام أحمد (٣/ ١٩٥)، وصحيح مسلم جـ١٦ كتاب النكاح.
(٣) فتح الباري (٨/ ٤٠٤).
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٢).

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾[1].

قالت عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ما صنع لها، زوجها الله من السماء.

فخرجت سلمى خادم رسول الله ﷺ تشتد فحدثتها بذلك، فأعطتها أوضاحًا عليها.

وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها، وروي أنه لما دخل بها قال لها: ما اسمك؟

قالت: برة، فسماها رسول الله ﷺ زينب[2].

وما كاد يتم هذا الحدث السعيد، حتى وجد المنافقون في المدينة بابًا يلجون منه، ويتكلمون فيه للنيل من الإسلام وأهله، وقالوا كيف ينهانا محمد عن زوجات الأبناء، ويتزوج هو زوجة ابنه زيد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[3].

وكان رسول الله تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً، ويقال له: زيد بن محمد فأنزل الله ﷻ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[4].

عندها شرع الإسلام في تنظيم الأسرة على الأساس الطبيعي لها، ويحكم

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

(٢) السمط الثمين: محب الدين الطبري ص١٢٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٤) سورة الأحزاب: ٥.

روابطها، ويجعلها صريحة لا غلط فيها ولا تشويه .. وأبطل عادة التبني التي كانت منتشرة في الجاهلية، وردَّ علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية علاقات الدم والأبوة والنبوة الواقعية وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤].

والكلام لا يغير واقعًا، ولا ينشئ علاقة غير علاقة الدم، وعلاقة الوراثة للخصائص التي تحملها النطفة، وعلاقة المشاعر الطبيعية الناشئة من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحي، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل».

ذكر نزول الحجاب بسبب زينب رضي الله عنها

عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش –رضي الله عنها – دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا الرسول ﷺ تهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام فلما قام، انصرف الجميع وبقى ثلاثة نفر.

فجاء مرة أخرى ليدخل على أهله فإذا القوم جلوس، فرجع من حيث أتى ثم إنهم انصرفوا، فانطلقت فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت لأدخل فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ من وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[1].

وعنه أيضًا ﷺ:

«لما تزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش – رضي الله عنها – جاء بخبز

(١) سورة الأحزاب: ٥٣.

ولحم فأرسلت على الطعام داعيًا، فيجيء قوم يأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحد أدعوه، فقال: «**ارفعوا طعامكم**».

وبقى ثلاثة رجال يتحدثون في البيت فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة – رضي الله عنها – فقال: «**السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته**».

فقالت: وعليكم السلام ورحمة الله؛ كيف وجدت أهلك؟ بارك الله فيها.

وذهب إلى حجر نسائه كلهن يقول لهن ما يقول لعائشة- رضي الله عنها، ويقلن له كما قالت عائشة -رضي الله عنها.

ثم رجع النبي ﷺ فإذا الثلاثة يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة -رضي الله عنها، فما أدري أخبرته أو أخبر أن القوم قد خرجوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في داخل الباب وأخرى خارجه، أرخى الستر بيني وبينه وأنزل الله آية الحجاب[1].

نزلت آية الحجاب، لتعلم الناس ألا يدخلوا بيوت النبي بغير إذن، فإذا دعوا إلى الطعام دخلوا، فأما إذا لم يدعوا فلا يدخلون يرتقبون نضجه، ثم إذا طعموا خرجوا، ولا يبقوا بعد الطعام للسمر، والأخذ بأطراف الحديث، وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي نزل به القرآن.

هذا جانب من حياة أم المؤمنين زينب بنت جحش – رضي الله عنها – والتي نزلت بعض آيات القرآن لتقرر زواجها من الرسول ﷺ، ومن أجل ذلك كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: «**زوجكن آباؤكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات**»[2]. ولقد كانت صوامة قوامة أواهة.

(١) أخرجه الإمام مسلم والبخاري، واللفظ للبخاري، وراجع السمط الثمين ص ١٢٦.
(٢) الإمام البخاري – الجامع الصحيح، وطبقات ابن سعد (٨ /١٠٨).

عن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «إن زينب بنت جحش أوّاهة».فقال الرجل: يا رسول الله ما الأواه؟

قال: «الخاشع المتضرع، ثم قرأ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾»[1].

وعن عائشة– رضي الله عنها – قالت: يرحم الله زينب بنت جحش، لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوجها نبيه ﷺ في الدنيا ونطق به القرآن، وإن رسول الله قال لنا ونحن حوله: «**أسرعكن بي لحوقًا أطولكن باعًا، فبشرها رسول الله بسرعة لحوقها به، وهي زوجته في الجنة**»[2].

فهل كانت أم المؤمنين زينب أطول نسائه يدًا؟

الحقيقة أنها لم تكن كذلك، ولكنها كانت كريمة متصدقة، تبذل مالها في سبيل الخير، وإعطاء المحتاجين والغارمين، والذين لا يجدون قوت يومهم.

عن عبد الله بن رافع عن برزة بنت رافع قالت: «لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما دخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من إخوتي كان أقوى عن قسم هذا مني».

قالوا: هذا كله لك.

قالت: سبحان الله! واشترت منه بثوب، وقالت: صبوه واطرحوا عليه ثوبًا.

ثم قالت لي: ادخلي يدك فاقبضي منه قبضة، فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من أهل رحمها وأيتامها، حتى بقيت منه بقية تحت الثوب.

فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لكِ يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق.

(١) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين – للمحب الطبري ص ١٢٩.
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٨).

فقالت: فلكم ما تحت الثوب.

فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهمًا، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: «**اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، فكانت أول أزواج النبي ﷺ لحوقًا به**»[1].

تقول عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها: لما قال النبي ﷺ لأزواجه: «**يتبعني أطولكن يدًا**».

فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد النبي ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت امرأة قصيرة – يرحمها الله – ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة.

قالت: «وكانت زينب امرأة صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله»[2].

لقد عرفت أم المؤمنين زينب أن هذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة فتركتها لطلابها، وعاشت حياتها متبتلة عابدة، وخصوصًا بعد وفاة الرسول ﷺ.

إن العمل الحقيقي الذي يجب أن يتجه إليه المسلمون هو ألا تلهينا الدنيا بزخارفها عما ينتظرنا في الحياة الآخرة، إن المؤمن الخاشع لربه – المنفذ لتعاليم مولاه – يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويعيش فيها، ويسعى في مناكبها، ويبحث عن رزقه ورزق أولاده، ولكن لا تغره الدنيا – ولا تجعله ينسى الموت لحظة، بل يتذكر نهاية أجله في كل آونة – وهذا ما كان عليه السلف الصالح؛ عمروا دنياهم، واتجهوا لآخراهم.

(١) المصدر السابق (٨/ ١٠٩).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (٤/ ١٨٥١).

لقد ماتت أم المؤمنين زينب – رضي الله عنها – وبكتها أم المؤمنين عائشة أحر البكاء، وشاركها المسلمون في ذلك، ولكن لكل أجل كتاب.

عن الزهري عن عروة قال: لما توفيت زينب بنت جحش جعلت أم المؤمنين عائشة تبكي، وتذكر زينب وتترحم عليها، فقيل لعائشة في بعض ذلك. فقالت:«كانت امرأة صالحة».

ويقول ابن سعد: لما ماتت زينب بنت جحش – وكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقًا به، أمر عمر مناديًا فنادى: «**ألا يخرج على زينب إلا ذو رحم من أهلها**».

فقالت أسماء بنت عميس: يا أمير المؤمنين ألا أريك شيئًا رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم؟ فجعلت نعشًا وغطته بثوب، فلما نظر إليه قال: ما أحسن هذا ما أستر هذا! فأمر مناديًا فنادى أن أخرجوا على أمكم[1].

وصلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليها، فكبر أربع تكبيرات، وقال لأمهات المؤمنين: من يدخلها قبرها؟

فأرسلن إليه: من كان يحل له الولوج عليها في حياتها، فأدخلها رجلان من أهلها بيتها.

رحم الله أم المؤمنين، ووفق نساء المسلمين على الاقتداء بها فيما كانت تأتي به في حياتها من التزامها بكتاب ربها، وسنة رسوله ﷺ.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٢).

تذييل

ما المقصود من اللباس عند الأمم والشعوب في عصرنا الراهن؟

وما المقصود به في شريعة الإسلام؟

إن المتتبع للنظام الاجتماعي، والدارس لطبيعة التمدن عندهم يرى أن اللباس يستعمل لمجرد الزينة أو الوقاية من عوارض الطبيعة وتقلباتها، ولم يكن أبدًا للستر أو حجب العورات.

ولكن الإسلام في نظامه الشامل أكثر ما يهمه من اللباس هو الستر دون الزينة، ومن هنا كانت أوامره للرجل والمرأة أن يسترا من جسدهما كل الأجزاء التي فيها جاذبية للصنف الآخر.

والعري في منهج الإسلام من الجاهلية الأولى التي تحول البشر إلى قطيع من الأنعام أو هم أضل سبيلاً.

والإسلام لا يحب حتى للزوجين أن يتجرد أحدهما أمام الآخر.. يقول الرسول ﷺ: «**وإذا أتى أحدكم فليستتر، ولا يتجردان تجرد العيرين**»[1].

وقالت عائشة – رضي الله عنها: «**ما نظرت إلى عورة رسول الله ﷺ**»[2].

والإسلام أيضًا يمنع الفرد أن يتجرد من ملابسه، وهو في خلوته؛ لأن الله سبحانه وتعالى أحق أن يستحيا منه[3].

وجاء في الحديث: «**إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط**

(١) رواه ابن ماجه في باب التستر عند الجماع.

(٢) شمائل الترمذي: باب ما جاء في حياء رسول الله ﷺ.

(٣) رواه الترمذي: باب حفظ العورة.

وحين يفضي الرجل إلى أهله؛ فاستحيوهم وأكرموهم»[1].

واللباس الذي يشف عن الجسم ويفضح العورات ليس بلباس في نظر الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «**نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها**»[2].

والعري: عادة جاهلية قديمة جاء الإسلام لإبطالها؛ لأن رجال الجاهلية ونساءها كانوا لا يرون لزوم الاستتار عند الغسل أو قضاء الحاجة، وكانوا يطوفون بالكعبة عراة، ويعتقدونه من أفضل العبادات حتى النساء كن يتعرين عند الطواف، وكن يلبسن في عامة الأحوال لباسًا يكشف عن بعض الصدور وعن جانب من الذراعين والكشح والساقين، وهي حالة توجد اليوم بعينها في دول الغرب، وبعض دول الإسلام التي تسير في فلكها[3].

فلما جاء الإسلام كان من نداءاته للبشرية كلها قول الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا**﴾[4]؛ ففرض بهذه الآية ستر الجسم على كل رجل وامرأة، وشدد النبي ﷺ في النهي عن كشف العورة، والنظر إليها؛ فقال: «**ملعون من نظر إلى سوءة أخيه**»[5].

وخرج ذات مرة إلى إبل الصدقة، فرأى راعيها تجرد في الشمس فعزله، وقال: «**لا يعمل لنا من لا حياء له**»[6].

وإذا كان ذلك كذلك؛ فلماذا الدعوة إلى العري؟ ومن المستفيد من انسلاخ

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الإمام مسلم.
(٣) الحجاب: لأبي الأعلى المودودي.
(٤) سورة الأعراف: ٢٦.
(٥) أحكام القرآن للجصاص.
(٦) المبسوط (١٠/ ١٥٥).

المرأة من ملابسها وتعريتها من حيائها وعفتها؟

إن المتتبع لحلقات التاريخ وأدواره يرى أن الدعوة إلى كشف المرأة كانت في بداية أمرها دعوة من اليهود.

وكان ذلك على وجه التحديد في مدينة الرسول ﷺ، ويحدثنا ابن هشام فيقول:

«إن امرأة من العرب قدمت بجلب»[1] لها فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع؛ فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه»[2].

واستمر اليهود بعد ذلك في محاولاتهم التي بدءوها في مدينة الرسول ﷺ واستعملوا في سبيل نجاح مقاصدهم كل وسيلة وكل حيلة، وقرر علماؤهم أن الجنس هو دستور الحياة، وعنصر الوجود، وفي سبيل ذلك وغيره حرفوا كتاب الله، وتقولوا على أنبيائهم الأقاويل، وسار المنهزمون من المسلمين على مسيرتهم، واستمعوا لأقوالهم، وقاموا على تنفيذ مخططاتهم في مدارسهم ومعاهدهم.

وفي ظل الاستعمار البريطاني وحمايته طالب (مرقص فهمي) في مصر المرأة المسلمة بالتجرد من الحجاب، والانسلاخ من شرائع الإسلام.

---

(١) الجلب: كل ما يجلب إلى السوق.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٧).

وتلقف هذه الدعوة أحد أبناء المسلمين هذه المرة – إنه (قاسم أمين) الذي طالب بتحرير المراة المسلمة؛ لتكون شبيهة بأختها في الغرب .. وزوج لدعوته اليهود وأنصارهم من أبناء المسلمين، وكل من في قلبه مرض.

لقد طالب اليهودي بنزع حجاب المرأة المسلمة، فكلفه ذلك حياته، وعندما طالب اليهود بذلك في هذا العصر، استجاب لهم حكام المسلمين وأنصارهم.

فعل ذلك (سعد زغلول) عندما نزع حجاب هدى شعراوي وهي تستقبله بعد عودته من منفاه، فاقتدت النساء المصريات بذلك.

وطالب (كمال أتاتورك) بنزع الحجاب، وأصدر لذلك قانونًا، وانتشر رجاله لتنفيذ أوامره.

وفعل ذلك أيضًا (رضا بهلوي) في إيران، وتبعه (محمد أمان) في أفغانستان، و(أحمد زوغو) في ألبانيا.

ومن ينظر إلى دعاة سفور المرأة وخروجها عن أحكام الشريعة يرى أنهم رجال ونساء ليسوا قدوة كريمة في الدين والتزام أحكامه، وليسوا قدوة في متانة الأخلاق، والبعد عن مواضع الفتنة والتهمة.

لقد كشفت المرأة عن وجهها، ولم تكتف بذلك بل انحسرت ملابسها عن أجزاء كثيرة من جسمها، فعلت المرأة ذلك في هذا العصر، العصر المريض الدنس الهابط الذي تهيج فيه الفتن، وتثور فيه الشبهات، وترف فيه الأطماع.

فكيف بالمسلمين المتمسكين بدينهم، المراقبين لربهم في هذا الجو الذي كل شيء فيه يثير الفتنة، ويهيج الغريزة، ويوقظ السعار الجنسي المحموم.

إنَّ المراة في هذا العصر لم تكتف بكشف وجهها وانحسار ملابسها عن مواطن العفة، ولكننا نرى نساء يتخنثن في نبراتهن، ويتميعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثى، وكل هتاف الجنس، وكل سعار الشهوة، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات.

والإسلام يهدف من إقامة الحجاب ... ومن ستر المرأة إلى إقامة مجتمع نظيف، مجتمع لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين.

فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي. فالنظرة الخائنة والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري .. تتعاون على إشعال ذلك السعار الحيواني المجنون، ونتيجة ذلك إما أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة فيكون الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، ولهذا كان من دستور الإسلام في التربية قول الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ويطيب لنا أن نتعرف على رأي صاحب الظلال في تفسيره هاتين الآيتين: غض البصر من جانب الرجال أدب نفسي، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الإطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيه إغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم.

---

(١) سورة النور: ٣٠، ٣١.

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى ذلك أزكى لهم، فهو أطهر لمشاعرهم، وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط، وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها وجوها الذي تتنفس فيه.

والله تعالى هو الذي يأخذهم بهذه الرقابة، وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة أو الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال، ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف، لا يخجل الأطفال الذي يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة.

﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

والزينة حلال للمرأة تلبية لفطرتها، فكل أنثى مولعة أن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة، والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطرة واحد، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله، وتجليته للرجال، والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكن ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد – هو شريك الحياة – يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

والجيب فتحة الصدر في الثوب غطاء الرأس والنحر والصدر ليداري مفاتنهن فلا يعرضها للعيون الجائعة، ولا حتى لنظرة الفجاءة، التي يتقي المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها، ولكنها تترك كمينا في أطوائهم بعد وقوعها على تلك

المفاتن لو تركت مكشوفة.

والمؤمنات اللواتي تلقين هذا النهي، وقلوبهن مشرقة بنور الله لم ينلكأن في الطاعة على الرغم من رغبتهن الفطرية في الظهور بالزينة والجمال، وقد كانت المرأة في الجاهلية – كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة – تمر بين الرجال مفسحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطه أذنيها.

فلما أمر الله النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها استجبن لأمر الله تعالى ... لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامي، وطهر إحساسه بالجمال، فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب، بل الطابع الإنساني المهذب، وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان مهما يكن من التناسق والاكتمال، فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف الذي يرفع الذوق الجمالي، ويجعله لائقًا بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال.

ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذه الأجزاء، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة.

﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها، فإن الخيال ليكون أحيانًا أقوى في إثارة الشهوات من العيان، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها، أو حليها، أكثر مما يثيرها رؤية جسد المرأة ذاته، كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهن.

إن سماع وسوسة الحلي، أو شم شذى العطر من بعيد يثير حواس رجال كثيرين، ويهيج أعصابهم، ويفتنهم فتة جارفة لا يملكون لها ردًا، والقرآن يأخذ

الطريق على هذا كله، ليزلن منزله هو الذي خلق، وهو الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف[1].

فمتى تأخذ نساؤنا المؤمنات بهذا الأدب، ويتحلين بهذه الصفات، حتى نرى المجتمع الإسلامي النظيف كما وضع قواعده وأسسه رب السموات والأرض؟! إنا لمنتظرون.

* * *

(١) في ظلال القرآن: للمرحوم سيد قطب بتصرف (٦/ ٩٥، ٩٦).



أم المؤمنين

حفصة بنت عمر

رضي الله عنها

قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، ألا تعجب من عثمان عرضت عليه الزواج من حفصة فأعرض عني؟

فقال الرسول ﷺ: يا عمر قد زوج الله عثمان خيرًا من ابنتك، وزوج ابنتك خيرًا من عثمان.

وأشرقت في خاطر عمر لمحة مضيئة أيتزوج رسول الله من ابنته حفصة؟

إن لهذا لشرف لم تتطاول إليه أمانيه، ونهض عمر إلى رسول الله يصافحه متهللاً.

وخرج مسرعًا يزف إلى ابنته وإلى أبي بكر وعثمان، وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة.

أم المؤمنين حَفصَة بنتُ عمَر

أم المؤمنين العابدة القوامة زوجة الرسول ﷺ في الجنة كما أخبر بذلك جبريل.

وابنة عمر بن الخطاب ﷺ الذي تولى خلافة المسلمين – فكان يبكي حتى تخضل لحيته – ويقول لمن يكفه عن البكاء: أخشى لو عثرت بغلة في طريق العراق؛ لحاسب الله عليها عمر أنه لم يسو لها الطريق.

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون الذي حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، وقال:

«**لا أشرب شرابًا يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي**»[1].

وأخت المتبتل العابد عبد الله بن عمر الذي قال عنه رسول الله ﷺ لزوجه حفصة بنت عمر: «**إن أخاك عبد الله رجل صالح لو كان يقوم من الليل**»[2].

فهي إذن من هذه الأسرة العابدة القانتة التي كانت ترى في الشرك انتقاصًا يذري بالرجل، وترك النفس لشهواتها، ورغباتها، يحط من كرامة الإنسان الشريف.

ولدت رضي الله عنها – وقريش تبني الكعبة، قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين.

ودرجت على بطحاء مكة، حيث الجبال المرتفعة، والطبيعة الصامتة، والحياة

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/١٠٥٣).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٩٥١).

الرتيبة المملة، التي لا تغرى بعمل، ولا تدفع إلى نشاط، هذا إذا استثنينا أيام الحجيج التي كان يأتي فيها الوافدون من أنحاء الجزيرة العربية إلى البيت العتيق يطوفون، ويبيعون ويشترون، ويستمعون إلى أشعار الشعراء ومفاخر القبيلة في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، ويفاضلون بينها ويزرون ببعضها حتى يعلق الجيد المحلق منها على أستار الكعبة.

وعندما وصلت إلى مرحلة الشباب، وأخذت بوادر النضج والأنوثة تظهر عليها، سمعت والدها يعلن إسلامه، وينضم إلى أتباع محمد ﷺ.

وقبل أن يعلن عمر ﷺ عن هجرته إلى المدينة، ويلقى على مسامع القرشيين كلماتهم الخالدة التي حفظتها أذن التاريخ:

«**من أراد أن يثكل زوجة أو يتيم ولده؛ فليتبعني وراء هذا الوادي**»[1].

تقدم لخطبة حفصة – رضي الله عنها – خنيس بن حذافة بن قيس، وكان خنيس هذا ليس معروفًا في أندية مكة ومجالسها، ولم يكن من سراتها ولا تجارها الممولين.

وأيضًا لم يكن من فرسانها الذين تعرفهم ظهور الخيل ورحى المعارك، ولكنه كان يملك عقلاً ذكيًا وذهنًا ألمعيًا، هداه إلى الإسلام وهذا هو الذي رشحه في نظر عمر بن الخطاب ﷺ ليزوجه حفصة.

وعندما اشتد أذى المشركين بالمؤمنين – هاجر إلى الحبشة، وفرَّ بدينه في أرض الله، ثم عاد مرة أخرى إلى مكة، وأخذ زوجته حفصة هاجرا معًا إلى المدينة موطن الإسلام وقلعة الإيمان.

واشترك خنيس في معركة بدر الكبرى، وشاهد انتصار المسلمين، واندحار عصابة الكفر.

(١) عمر بن الخطاب: د. محمد حسين هيكل.

وفي غزوة أحد – أصيب بجراحات عدة – أخذ يطبب منها، ولكن جاء أجله -فمات بالمدينة- رضوان الله عليه.

مات ابن حذافة وترملت المرأة العابدة، وعاشت في بيت أبيها تجتر أحزانها وتعيش آلامها، لا يحلو لها مطعم، ولا تطيب لها حياة، وأخذت زهرة شبابها تذبل، ونضرتها تضوى.

وكان عمر ﷺ، يلحظ بعينه اللماحة، وقلبه الكبير ما تعانيه ابنته من قلق وضيق، ومن حزن وألم – بعد أن فقدت رجلها، وعاشت تجتر أيامها السابقة أيام كانت ملكة في بيتها – تناغي زوجها إذا حضر، وتنتظر إيابه إذا ذهب.

فخرج عمر يبحث عن السعادة لابنته – ولكن كيف؟

إنه يقدر ما تعاني هذه الإنسانة المترملة، بعد أن تعودت على الحياة الزوجية؟

إن ذهب العالم وفضته لا يمكن أن يعوضا المرأة شيئًا عندما تفقد زوجها، ولكن يمكن لرجل آخر أن يعيد لها السعادة، ويوجد لها الأمل، ويجمل أيامها ولياليها.

إذن لا بدَّ من زواج حفصة .. إن رجلاً آخر يمكن أن يعيد لها السعادة، ويريح قلب عمر.

وعندما وصل عمر ﷺ إلى هذا استراح قلبه واطمأن خاطره – إن زواج حفصة ليس بمشكلة – سيعرضها بنفسه على أحد المسلمين، نعم ولم لا؟ أليس في هذا حل لمشكلته ومشكلتها أيضًا؟

إن قلبه يكاد يتقطع كلما دخل بيته ووجد حفصة على هذه الصورة الكئيبة الحزينة التي لا تفارقها.

وبينما ينقل عمر خطواته في إحدى الطرق الممتدة داخل المدينة وقعت عينه على عثمان بن عفان ﷺ. فاقترب منه وبادله التحية، وجلسا يتكلمان، وبينما هم في ذلك. لمعت الفكرة السابقة في ذهن عمر؛ فقال بكل ما يحمله قلب الإنسان من حب لابنته ورغبة في إسعادها: يا عثمان،

فأجابه: نعم يا عمر.

فقال: أتتزوج حفصة يا عثمان؟

فأخذت المفاجأة عثمان، لأنه ما فكر في هذا الأمر، ولم يكن لديه جواب فقال: يا أخي يا عمر: ما لي في النساء حاجة[1].

ولكن عمر لم ييأس .. ولم ير أن في ذلك عيبًا ينقص من قدره، أو يزري بمروءته إن ابنته تعاني من وحدتها الشيء الكثير؛ فهل يلام إذا كان يبحث لها عن السعادة ويعيد لها النضارة؟!

والتقى بأبي بكر الصديق ﷺ، وما قاله لعثمان قاله لأبي بكر: أتتزوج حفصة يا أبا بكر؟

ولكن أبا بكر لأمر من نفسه: سكت ولم يحر جوابًا.

فغضب عمر، وكيف لا يغضب وهؤلاء أخوته في الإسلام لا يتقدمون لمساعدته في مشكلته، ولا يخففون عنه بعض ما يعانيه؟

فاتجه إلى الرسول ﷺ ليضع أمامه جملة حاله، ويشكو له هؤلاء الذين تخلوا عنه في مشكلته.

وعندما مثل أمامه قال: يا رسول الله، ألا تعجب من عثمان إني عرضت عليه حفصة فأعرض عني.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٨٢)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٨١١).

فقال الرسول ﷺ: «**يا عمر: قد زوج الله عثمان خيرًا من ابنتك، وزوج ابنتك خيرًا من عثمان**»[1].

وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة: أيتزوج رسول الله ﷺ من ابنته؟ إن هذا لشرف لم تتطاول إليه أمانيه؟!

أتتزوج أم كلثوم بنت الرسول ﷺ من عثمان؟! نعم فهذه هي خير من حفصة، وصدق رسول الله، وتتزوج حفصة رسول الله ﷺ فهذا خير من عثمان.

ونهض إلى الرسول يصافحه متهللاً، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض، وخرج مسرعًا يزف إلى ابنته وإلى أبي بكر، وعثمان، وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة.

وكان أبو بكر أول من لقيه، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته، فمد يده مهنئًا معتذرًا بقوله:

«لا تجد عليَّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها»[2].

وعاشت حفصة في بيت الرسول ﷺ مع «سودة» و «عائشة» -رضي الله عنهما، وكان بينها وبين عائشة بعض النفور، ولكن ما لبث أن كثرت أمهات المؤمنين في بيت الرسول ﷺ.

ورأت عائشة -رضي الله عنها- أن تستعين بحفصة بما تفعله في الزوجات الأخريات، وانحازت حفصة لجانب عائشة -رضي الله عنها-.

وكان عمر يرقب موقف ابنته في قلق وآلمه أن تساير صاحبتها، وليس لها

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٤، وراجع طبقات ابن سعد (٨/ ٨٣).
(٢) أخرجه الإمام البخاري، وراجع السمط الثمين ص ٩٦.

مثل حظها من حب الرسول ومكانته.

فأقبل على ابنته يحذرها مما هي فيه من مسايرة عائشة -رضي الله عنها، وتدللها على رسول الله، وقال لها: «**أين أنت من عائشة؟ وأين أبوك من أبيها؟**» [1].

فهل استجابت حفصة لأوامر أبيها؟ وهل أذعنت لما قال؟

يروى عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: كان رسول الله ﷺ قلَّ يوم إلا وهو يطوف على نسائه، فيدنو من أهله فيضع يده، ويقبِّل كل امرأة من نسائه حتى يأتي على آخرهن، فإن كان يومها قعد عندها، وإلا قام، فكان إذا دخل بيت أم سلمة يحتبس عندها.

فقلت أنا وحفصة: ما نرى رسول الله يمكث عندها إلا أنه يخلو معها، قالت: واشتد ذلك علينا، حتى بعثنا من يطلع لنا ما يحبسه عندها، فإذا هو إذا صار إليها أخرجت له عكة من عسل فتحت له فمها فيلعق منه لعقًا، وكان العسل يعجبه.

فقالتا: ما من شيء نكرهه إليه حتى لا يلبث في بيت أم سلمة؟

فقالتا: ليس شيء يكرهه إليه من أن يقال له: نجد منك ريح شيء، فإذا جاءك فدنا منكِ فقولي: إني أجد منك ريح شيء، فإنه يقول: من عسل أصبته عند أم سلمة.

فقولي له: أرى نحله أكل عرفطًا.

فلما دخل على عائشة فدنا منها قالت: إني لأجد منك شيئًا، ما أصبت؟ فقال: عسل من بيت أم سلمة، فقالت: يا رسول الله، أرى نحله أكل عرفطًا، ثم

---

(١) راجع تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

خرج من عندها فدخل على حفصة فدنا منها فقالت: مثل الذي قالت عائشة فلما قالتاه جميعًا اشتد عليه على أم سلمة بعد ذلك فأخرجت له العسل فقال: «اخريه عني لا حاجة لي فيه».

فقالت: فكنت والله أرى أن قد أتينا أمرًا عظيمًا، منعنا رسول الله ﷺ شيئًا كان يشتهيه[1].

وهكذا شاركت حفصة في أساليب الغيرة، وما يترتب عليها في بيت النبوة وساهمت مع عائشة في طريقة إبعاد الرسول ﷺ عن بعض زوجاته.

إن المرأة دائمًا تحب أن يكون زوجها لها وحدها، فإذا شاركتها امرأة أخرى فيه، أكلت الغيرة قلبها، وانتهزت أول فرصة للانتقاص من غريمتها أو إيقاع الضرر بها.

لقد كانت السيدة عائشة تفعل ذلك مع الرسول ﷺ بغية أن يخلو لها وحدها، ولكن ذلك كان من المحال، لأن الرسول ﷺ كان يتزوج نساءه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى؛ فلماذا تورطت حفصة مع عائشة؟

ولماذا شاركتها في هذا الطريق الوعر؟ بعد أن حذرها والدها من ذلك، وطلب منها أن تلتزم حدها، ولا تتجاوز ما ليس لها؟

إنَّ حفصة لم تفعل ذلك فحسب، ولكنها كانت تراجع رسول الله ﷺ وترد عليه.

فقد روى جابر بن عبد الله، عن أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل إن شاء الله النار أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها.

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ٨٥).

فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[1].

فقال النبي ﷺ: قد قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

وانتشرت هذه الواقعة بين نساء المدينة، وعملت بذلك نساء الصحابة رضوان الله عليهم.

وفي يوم تكلم عمر بن الخطاب ﷺ مع زوجته، فما أن كان منها إلا أن اعترضت عليه، فأكبر ذلك عمر من زوجته، فقالت له: لست وحدك التي تراجع زوجها، ولكن ابنته أيضًا حفصة تراجع الرسول ﷺ؛ فما كاد يسمع ذلك حتى انطلق إليها من فوره يسألها إن كان ما سمعه حقًّا؟

فلما أجابت أن نعم، صاح فيها وزجرها، وقال لها: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها، والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك، ولولا أنا لطلقك[3].

ثم يمضي عمر عن حفصة، وتستجيب لما أمرها أبوها، وتطيع زوجها، وتؤدي ما عليها تجاه زوجها وربها.

إنها المؤمنة الصابرة، الراضية القانعة، وقد حقق الله لها كل ما تريد بزواجها من الرسول ﷺ، فعليها أن تسمع وتطيع حتى يتم الله عليها نعمته، ويبارك لها في حياتها وأيامها.

ولكن حدث ما لم تستطع حفصة أن تصبر عليه من ذلك أن الرسول ﷺ خلا «بمارية» في بيت حفصة، فعادت إلى أحزانها، وتمثل لها أبوها يقول: «والله

(١) سورة مريم: ٧١.
(٢) سورة مريم: ٧٢.
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤).

لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك».

فلما انصرفت «مارية» دخلت حفصة حجرتها، وقالت للرسول: «**لقد رأيت من كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك**»، ثم استعبرت باكية.

ووقعت كلمتها من الرسول موقعًا أليمًا، فأقبل عليها يترضاها، وهان عليه أن يسر إليها أن مارية حرام عليه، فتتناسى حفصة ما كان ولتعتبره كأن لم يكن، ورضيت حفصة.

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه، حتى إذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوي من سر خطير، فنبأت به صاحبتها التي انتهزت الفرصة لتنال من غريمتها «الأمة القبطية»[1].

ولم تقدر حفصة وهي تذيع السر لعائشة، أنها بسبيل إشعال نار في بيت الرسول، فإن عائشة لم تهدأ حتى جمعت نساء النبي في مظاهرة ثائرة بمارية مصرة على ألا يبقى لها في مدينة الرسول مكان.

واندفعت عائشة تستثير ضرائرها فما زالت بهن حتى انضممن، إليها وقد تناسين غيرتهن منها، وكانت كلمتهن:

«صبرن على إيثار الرسول لابنة أبي بكر، وما بقى إلا تلك الأمة القبطية، فأي هوان».

ولجت عائشة في غيرتها والنساء يظاهرنها على زوجهن الرسول غيظًا من مارية التي حملت دونهن بضعة من رسول الله، وترفق الرسول بهن ما استطاع مقدرًا بواعث هذا التظاهر، لكنهن تمادين في اللجاج إلى حد الشطط،

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٧).

مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن.

وما كان ﷺ فارغ البال إذ ذاك لهذا العبث النسوي المسرف، ولا كان يستطيع أن يرضى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل، فاعتزلهن في صراحة لم يألفنها، وأعلن في حزم وتصميم أنه منقطع عنهن[1].

وأشيع أن الرسول ﷺ طلق حفصة، أو طلق زوجاته جميعًا.

وعندما سمع عمر بن الخطاب ﷺ قال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعده، فنزل جبريل عليه السلام من الغد على النبي ﷺ فقال: «**ارجع حفصة؛ فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة**»[2].

ودخل عمر ﷺ وقال: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك.

فقال له الرسول ﷺ: إنما هجرتهن شهرًا.

وانطلق عمر إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه.

ونزل قول الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[3].

وعاشت حفصة في بيت الرسول ﷺ ،ولم تفكر مرة أخرى أن تفعل ما يغضب الله ورسوله.

---

(١) موسوعة آل النبي ﷺ ص٢٧١.

(٢) السمط الثمين ص ٩٧.

(٣) سورة التحريم: ١، ٢.

فلما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، كانت حفصة من بين زوجاته عليه السلام هي التي اختيرت لتحتفظ بالنسخة الخطية للقرآن الكريم.

وبقي المصحف عندها حتى أخذه أمير المؤمنين عثمان بن عفان في خلافته فنسخ منه النسخ الأربع التي وزعت على الأمصار.

ودخل عمر رضي الله عنه على حفصة في بيتها بعد وفاة الرسول ﷺ فقدمت إليه مرقًا وخبزًا، وصبت في المرق زيتًا.

فقال: أدمان في إناء واحد؟ لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل. فقالت حفصة: يا أبت، إنه قد أوسع الله الرزق، وفتح عليك الأرض، وأكثر من الخير، فلو طعمت طعامًا ألين من طعامك، ولبست لباسًا ألين من لباسك؛ فقال عمر: «يا حفصة، سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من الشدة في العيش؟ فما زال يذكرها حتى أبكاها، ثم قال: إني قد قلت لكِ إني والله لئن استطعت لأشاركنهما في عيشهما الشديد لعلي ألقى معهما عيشهما الرخي»[1]. يعني: رسول الله وأبا بكر.

ومات أبوها وعاشت بعده، عابدة قانتة حافظة متبتلة بكتاب ربها، حتى قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ودخل المسلمون في فتنة عمياء، وانقسموا فرقًا وأحزابًا، وكل فريق يعمل بما يرى أن في ذلك صالح المسلمين، واعتزل مجموعة من الصحابة عن هذه الفتنة، وأغلقوا عليهم أبوابهم. مثل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأرادت السيدة عائشة الخروج للتصدي أمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفكرت أن تأخذ معها رفيقة حياتها وشريكتها في بيت النبوة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فهل استجابت حفصة لما طلبته عائشة -رضي الله عنها؟

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٧٧).

وهل فكرت في الخروج معها لقتال علي ﷺ؟

تروي بعض الروايات التاريخية أن حفصة أوشكت أن تستجيب لطلب عائشة وتخرج معها لولا أن أخاها عبد الله بن عمر ﷺ منعها من ذلك[1].

فأذعنت له، واستمعت لأوامره وعاشت في بيتها تنتظر قضاء، ربها وانتهاء أجلها بالعبادة لله والتضرع إليه.

حتى وافاها أجلها في سنة خمس وأربعين للهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ومتعهما بما في جناته من نعيم.

(١) تاريخ الطبري جـ٣ ص ٤٧٥.

الدروس المستفادة

تذييـــــل

المرأة جهاز روحي عجيب، يلقي في قلب الرجل أسرار القوة ومعاني الثقة بالنفس.

والمرأة إنسان كريم، وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفعية، وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة، وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات، أمًّا وزوجةً وربة بيت.

فإن كانت أمًّا ففي طاعتها رضوان الله تعالى، وتحت أقدامها الجنة، وإن كانت زوجة صالحة؛ فهي أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله.

وهي الحسنة التي يطلبها المؤمن من ربه صباح مساء، ويتمناها في دنياه وآخرته بقول تعالى:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

وإن كلمة واحدة منها – لزوجها وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران أو مكائد الرجال كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس، فإذا هو خلق جديد، وبناء غير الذي كان يوشك أن ينهار.

إن المرأة في منهج الإسلام هي الستر والوقاية، هي الحفظ والرعاية، تلتقي بزوجها فتكاشفه بسرها، ويفضي بين يديها بجملة حالة .. تعرف ماضيه وحاضره، وتتطلع إلى مشاريعه ومستقبله، وتساهم معه في معركة الحياة الضاربة التي يخوضها بغية توفير الحياة الهادئة التي يريدانها معًا، حتى يوفقهما الله سبحانه وتعالى في تربية الأولاد، ويقيما دعائم عشهما الصغير على الود والمحبة.

(١) سورة البقرة: ٢٠١.

إنَّ الله سبحانه وتعالى عبرَّ عن الحياة الزوجية باللباس قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1].

واللباس في حقيقته لا يستغنى عنه الإنسان في هذه الرحلة رحلة الحياة، فهو الذي يحول بينه وبين وقدة الصيف ولفحة الشمس، وهو الذي يدثره ويبعث الدفء في أوصاله في ليالي الشتاء، وهو فوق ذلك يستر تشوهات الجسم وعيوبه بالنسبة لكل منهما؛ فلا تمجهما العيون أو تنفر منهما الآخرين.

وهو بالنسبة للمرأة ستر ووقاية أيضًا يستر محاسنها ومفاتنها، ويقي جسدها من عيون الرجال المتلصصة، ومن في قلوبهم مرض، وإذا كان هذا بالنسبة للباس؛ فماذا بالنسبة للرجل والمرأة في حياتهما الزوجية؟

إن كلاً منهما ستر للآخر، ستر لأقواله وأفعاله، وحفظ لأسراره ما يخفيه، فالمرأة ستر للرجل ووقاية عندما يوشك أن تغلبه الإرادة، والرجل ستر للمرأة وصيانة عندما تغلبها العاطفة، ويسيطر عليها ضعف الأنثى.

والله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة للنساء في وصفهن والقيام بواجبهن تجاه زوجها وأمام ربها: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ﴾[النساء: ٣٤].

حافظات لزوجها في حياته الخاصة والعامة، وحافظات على ماله وأولاده، وحافظات لأسراره وأقواله.

وحافظات لماء وجهه؛ فلا تكلفه من المطالب المعيشية ما لا يقدر عليه، لأن هذا يؤذيه في شعوره، وقد يضطر أن يبحث عن وسائل للكسب الحرام حتى يرضي زوجته.

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

وقد كانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله: «**اتق الله، وإياك والكسب الحرام؛ فإننا قد نصبر على الجوع والضر، ولكننا لا نصبر على النار**».

ومن جملة ما يحفظ ما يكون بينهما من علاقة خاصة فلا تكون حديثًا في المجالس أو سمرًا في الندوات مع الأصدقاء والصديقات؛ ففي الحديث عن رسول الله ﷺ:

«**إن من شر الناس منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى المرأة، والمرأة تفضي إليه، ثم ينشر سرهما**»[1].

والحديث الآخر رواه أبو هريرة بقوله: صلى بنا رسول الله ﷺ، فلما سلَّم أقبل علينا بوجهه فقال: «**مجالسكم، هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره، ثم يخرج فيحدث فيقول: فعلت بأهلي كذا؟**» فسكتوا.

فأقبل على النساء فقال: «**هل منكن من تحدث؟**»

فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها، وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها فقالت: أي والله، إنهم يتحدثون، وإنهن ليتحدثن.

فقال ﷺ: «**هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة، فقضى حاجته منها، والناس ينظرون إليه**»[2].

وبعد هذا الأدب النبوي الكريم لأمته، هل يجوز للمرأة التي عرفت القليل والكثير عن حياة زوجها أن تكشف سره؟ وأن تتحدث للآخرين به؟ وأن توضح لهم ما يريد أن يخفيه عنه أو يكتمه عن دنياهم؟

---
(١) رواه مسلم وأبو داود.
(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والبزار.

الحقيقة أن بعض النساء يفعلن ذلك، وينشرن على الآخرين ما يجب أن يخفى، ونتيجة هذا الإفشاء غالبًا ما تكون وخيمة، وقد يؤدي إلى الانفصال أو الطلاق.

وقد يكتم الرجل سرًّا يخفيه عن كل ما حوله، وتأتي المرأة فتكشف هذا السر؛ فيكون نتيجة ذلك القتل أو السجن أو مشاكل لا تقف عند حد.

والدليل على ذلك سر الرسول ﷺ الذي ألقى به لأم المؤمنين حفصة فأفشته، فكان ما كان، من هجر زوجاته شهرًا على ما يقال، والتفكير في الانفصال عنهن جميعًا.

فالمرأة العاقلة هي التي تحافظ على أسرار زوجها، ولا تعلنها للآخرين، ولو كانوا أقرب المقربين إليها حرصًا على سلامة الأسرة، وسعادة البيت وتربية الأطفال.

فهل تراهن فاعلات؟! نرجو من الله ذلك.



أم المؤمنين

رملة بنت أبي سفيان

رضي الله عنها

فوجئت أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان بأبيها يدخل بيتها في المدينة، فوقفت تجاهه بادية الحيرة لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول؟

وأدرك أبو سفيان ما تعانيه ابنته، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس.

وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه إلا أن وثبت ابنته فاختطفت الفراش من تحته، وطوته في إعزاز.

سألها وهو يلوذ بالصبر: أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش أم رغبة بالفراش عني.؟

وجاءه جوابها: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك؛ فلم أحب أن تجلس عليه.

قال والألم يفري كبده: «لقد أصابك يا بنية بعدي شر».

أم المؤمنين رَملة بنت أبي سفيان

رملة بنت أبي سفيان بن حرب، زوج الرسول ﷺ، وإحدى أمهات المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[1].

والدها أبو سفيان بن حرب، رئيس وفد قريش الذي سأله هرقل ملك الروم عن النبي ﷺ وطلب من بقية رفقائه أن يكذبوه إن كذب عليه.

قال هرقل لأبي سفيان: هل كان في آباء محمد من ملك؟

فقال: «لا».

قال: هل قال هذا القول أحد قبله؟

قال: «لا».

قال: أهو ذو نسب فيكم؟

قال: «نعم».

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال: «لا، ما جربنا عليه كذبًا».

قال: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟

قال: «إن الضعفاء اتبعوه».

وسأله: هل يزيدون أم ينقصون؟

فذكر أنهم يزيدون.

(١) سورة الأحزاب: ٦.

وسأله: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟

قال: «لا».

وسأله: هل قاتلتموه؟

قال: «نعم».

وسأله عن الحرب بينهم وبينه؛ فقال: يدال علينا مرة، وندال عليه أخرى.

وسأله: هل يغدر؟

فقال: «إنه لا يغدر».

وسأله: بماذا يأمركم؟

فقال: «يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة».

فقال هرقل: هذه صفة نبي، وقد كنت أعلم أن نبيًّا يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين.

قال أبو سفيان: «فقلت لأصحابي ونحن نخرج: لقد كبر أمر ابن أبي كبشة إنه ليعظمه ملك بني الأصفر»[1].

وأمها: صفية بنت أبي العاص بن أمية عمة عثمان بن عفان ﷺ.

وأخوها: معاوية بن أبي سفيان ﷺ أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وتولى ولاية الشام من قبل عمر بن الخطاب ﷺ.

ولما طلب بطارقة الروم أن يتسلم عمر بن الخطاب مفاتح بيت المقدس،

(١) شرح الطحاوية تحقيق أحمد شاكر ص ١٠٠ بتصرف.

وسار إليهم استقبله معاوية في موكب عظيم، فلما دنا منه قال له عمر: أنت صاحب الموكب العظيم؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: مع ما يبلغني من وقوف ذوى الحاجات ببابك.

قال: مع ما يبلغك من ذلك.

قال: ولم تفعل هذا؟

قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به، فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له: إن كان ما قلت حقًّا إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب.

قال: فمرني يا أمير المؤمنين.

قال: لا آمرك ولا أنهاك[1].

عاشت رملة في بيت أبيها زهرة فواحة بالعطر، راضية قانعة، هينة مع أهلها، لينة في معاملة الناس، ولم تكن كغيرها من فتيات بني أمية اللاتي كن يتعاجبن بالجمال، ويفتخرن بالمال، ويتغنين ببطولة الفرسان؛ بل كانت تنفر من أفكار الجاهلية وتسلطاتها.

وعندما بلغت مبلغ الأنوثة، واكتمل شبابها، زفت إلى عبيد الله بن جحش، فكانت له نعم الزوجة الصابرة المطيعة التي تحرص على مرضات زوجها، وتسعده بحفظ ماله، والاهتمام بشئونه، تفرح بمقدمه إن حضر، وتنتظر أوبته إذا غاب.

ورزقت منه بابنتها حبيبة فقرت بها عينها، وعاشت لها ولأبيها أمًّا تبذل لهما

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٤١٧).

الحنان، والحب، وزوجة تقدم الولاء والعطف، واستمرت حياتها على هذه الوتيرة الهادئة، حتى بزغ فجر الإسلام، وترددت في جنبات مكة كلمة التوحيد. واستمع زوجها إلى كلام الله تعالى يرتله رسوله الكريم في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، فأعلن إسلامه وعاد إلى بيته إنسانًا جديدًا يضم ابنته في حنان، ويربت على كتف زوجته في عطف.

إنه يخشى أن تسمع زوجته بإسلامه فتفر منه، أو لا تستجيب لدعوة التوحيد إن دعاها إليه فلا تحل له، وارتبكت أموره، وعلته كآبة من الحزن.

حتى كانت ليلة استيقظ في جوفها، وخيل إليه أن زوجته نائمة فأخذ يرتل كلمات ربه، ويصلي لخالقه، ويطلب منه السداد والتوفيق، وطرقت أذنها هذه الكلمات، واستقرت مباشرة في قلبها، لتنير حياتها، وتهديها إلى طريق الحق، وطريق النور.

فأعلنت إسلامها، وتابعت زوجها فيما آمن به، ومن يومها أحست أن للحياة طعمًا جديدًا، وأن للوجود غاية أكبر مما كان يظن هؤلاء الشيوخ الذين يتحلقون حول الكعبة، ينتظرون الوفود التي تأتي إليهم بالنذور الوفيرة، والخير الكثير.

واتخذت من بيتها مسجدًا ومحرابًا تتبتل فيه لربها، وتنتظر عودة زوجها، ولكن قريشًا لم تترك هذه الفئة المؤمنة تردد كلمة التوحيد، وتسخر من الأصنام، وتدعو إلى دين الله، بل أرادت أن تكمم أفواههم، وتجلد أبشارهم، وتصب عليهم العذاب صبًّا.

وأذن الرسول الكريم لهذه الفئة المستضعفة بالهجرة إلى الحبشة؛ لأنهم سيجدون بجوار ملكها الصالح العدل والأمان.. وتتابعت الوفود على الطريق معلنة التصميم على إيمانها مهاجرة إلى ربها .. مضحية في سبيل الله بالأهل

والولد والمال.

وكان عبيد الله بن جحش وزوجته رملة وابنته حبيبة مع الجماعات المهاجرة، والتي حطت رحلها بأرض الحبشة .. واطمأنت رملة إلى الوطن الجديد، ووجدت فيها رحابةً وأمنًا وحريةً واطمئنانًا، الأمر الذي يجعلها تعبد ربها بلا خوف، وترفع صوتها بالآيات البينات بلا وجل.

وفي ليلة من الليالي رأت أم حبيبة رؤيا أفزعتها واضطربت لها كل جوارحها تقول عن نفسها:

رأيت في النوم عبيد الله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه ففزعت، فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في الدين فلم أرى دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك، وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له، فلم يحفل بها، وأكب على الخمر حتى مات، فأرى في النوم كأن آتيًا يقول: يا أم المؤمنين، ففزعت فأولتها أن رسول الله يتزوجني.

قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتي، فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية يقال لها: أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت عليَّ فقالت: «إن الملك يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجكه».

فقالت: بشركِ الله بخير.

وتزوجت رملة رسول الله ﷺ، وانتقلت إلى بيت النبوة، وأولم عثمان بن عفان وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح، وأطعم الناس، وباتت مكة ساهرة مؤرقة تردد قول أبي سفيان، وقد بلغه نبأ زواج محمد من ابنته رملة:

«هذا الفحل لا يجدع أنفه»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٨.

حتى كان يوم نقضت قريش عهد الحديبية التي عقدته مع الرسول ﷺ فقرر غزو مكة، وعلمت قريش بما قرره الرسول ﷺ، فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر محمد الذي يوشك أن ينقض عليهم، ولا قبل لهم به، واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة يفاوض محمدًا ﷺ في تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين، ولكن من يكون رسولهم؟ إنه أبو سفيان ولا أحد غيره.

وخرج أبو سفيان يريد المدينة، فلما بلغها تذكر أن له ابنة هناك في بيت خصمه، فتسلل إليها يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت أم المؤمنين بأبيها يدخل بيتها، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت إلى الحبشة، فوقفت تجاهه بادية الحيرة، لا تدري ماذا تفعل، أو ماذا تقول؟

وأدرك «أبو سفيان» ما تعانيه ابنته فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش، فما راعه إلا أن وثبت ابنته فاختطفت الفراش وطوته في إعزاز.

سألها وهو يلوذ بالصبر: أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش، أم رغبة بالفراش عني؟

وجاءه جوابها: «هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك؛ فلم أحب أن تجلس عليه».

قال والألم يفري كبده: «لقد أصابك يا بنية بعدي شر»[1].

وانصرف غاضبًا، واتجه إلى رسول الله ﷺ، فكلمه في العهد، فلم يجبه بشيء، فتوسل بأبي بكر إلى الرسول، لكن أبا بكر رفض، فكلم عمر بن الخطاب فرد عليه بقوله:

(١) سيرة ابن هشام (٤/٣٨) وتاريخ الطبري (٣/١١٣) والسمط الثمين ص ١٠٠.

«أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به».

وانطلق أبو سفيان إلى بيت عليٍّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وولدها الحسن يدب بين يديها، فقال:

«يا علي إنك أمس القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة .. فاشفع لي إلى محمد».

أجاب عليٌّ: «ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه».

فالتمس نصيحته فقال عليٌّ -كرم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئًا يغني عنك شيئًا لكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، وما أظن ذلك مغنيًا، ولكن لا أجد لك غيره»[1].

فذهب أبو سفيان إلى المسجد، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس، ثم أسرع إلى راحلته، وانطلق بها يعدو في طريق مكة كأنه يفر من مطاردة[2]، وسمعت أم المؤمنين بما حدث مع أبيها، وتيقنت أن سفارته لم تأت بخير، وان الرسول ﷺ سيأخذ عليهم الأرض من أطرافها، ماذا يمكن أن تفعل لأبيها لا شيء، ولاح في داخلها أمل عجيب ألا يمكن أن يشمل أبوها كما أشمل بقية صناديد مكة .. ولم لا؟

إنها تطلب من ربها ذلك، وتدعوه عله يستجيب لها، ورفعت أكف الضراعة إلى ربها تطلب منه أن يهدي قومها، وينصر زوجها.

وتحرك الجيش الزاحف إلى مكة – جيش الإيمان – الذي ردد في جنبات الطريق وفوق السهول والإيمان كلمة «الله أكبر».

(١) سيرة ابن هشام(٤/ ٣٩) وتاريخ الطبري (٣/ ١١٣).
(٢)المصدر السابق.

وعسكر الجيش قريبًا من مكة، وخرج أبو سفيان ليستطلع أمر هـذا الجـيش الزاحف والتقى بالعباس بن عبد المطلب فقال له:

«يا أبا سفيان، هذا رسـول الله في النـاس، واصـباح قـريشٍ إذا دخـل مكـة عنوة».

قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟

فأردفه العباس وراءه، وسار به خلال المعسـكر مـارًا بعشـرة آلاف أوقـدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلوب المشركين.

فلما مرا بنار «عمر بن الخطاب» ﷺ عرف أبا سفيان فأسرع إلى خيمة الـنبي مستأذنًا في أن يضرب عنقه.

وجاء العباس على إثره فقال: إني يا رسول الله قد أجرته.

وقال الرسول ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به».

فلما كان الصـباح جـيء بـأبي سـفيان إلى حضـرة الـنبي، وفي مجلسـه كبـار المهاجرين والأنصار.

وتكلم النبي ﷺ فقال:

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟».

أجاب أبو سفيان:

«بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد».

قال الرسول ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أني تعلم أن رسول الله؟».

أجاب:

«بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه، فوالله إن في النفس منها حتى الآن شيئًا»[1].

ولكن أبا سفيان ما لبث أن أعلن إسلامه، فالتمس «العباس» من النبي ﷺ أن يكرم الرجل بشيء يرضي حبه للفخر، فأجاب ﷺ:

«نعم .. من دخل دار أبي سفيان؛ فهو آمن .. ومن أغلق بابه؛ فهو آمن، ومن دخل الكعبة؛ فهو آمن»[2].

ووصل الخبر إلى مسامع رملة أم المؤمنين بإسلام أبيها وإكرام زوجها له، وأنه من دخل دار أبيها؛ فهو آمن؛ وسجدت لله شاكرة .. وانتظرت مع أمهات المؤمنين عودة القائد المنتصر.. الزوج الحبيب، والرسول الكريم، البار بأهله وعشيرته، القائل كلمته المشهورة لهم وهم بين يديه وفي قبضته: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[3].

والتقت أم حبيبة بزوجها رسول الله ﷺ بعد عودته من مكة .. وحدثته بفرحتها لهداية أبيها للإسلام .. وانضمامه لجيش المسلمين .. وامتنانه عليه بجعل داره موطن الأمان لمن يريد أن يحتمي من ضراوة الجيش الفاتح.

وحدثها رسول الله ﷺ عن الفتح الأكبر، وألقى على مسامعها ما قاله للناس:

«إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى يوم القيامة، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس؛ فليبلغ شاهدكم

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٢).

غائبكم، ولا يحل لنا من غنائمها شيء»[1].

ولما انتهى رسول الله ﷺ من حديثه قالت له: «يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان».

قال: أو تحبين ذلك؟

فقالت: نعم، لست لك بمخيلة، وأحب من شاركني في خير أختي.

فقال النبي ﷺ: إن هذا لا يحل.

فقالت له: فإنا نتحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة.

قال: بنت أم سلمة؟!

قالت: نعم.

قال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي؛ لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وإياها ثويبة، فلا تعرضي عليَّ بناتكن ولا أخواتكن»[2].

فاذعنت لأمر الله، وأمر رسوله ﷺ.

وتمرُّ الأيام، وتكر الليالي وأم حبيبة تعيش في بيت النبوة تشارك أمهات المؤمنين في حياتهن في العمل على مرضات الرسول ﷺ، وتفقيه المسلمات بأمور دينهن.

وفي يوم من الأيام نعى لها الناعي أباها أبا سفيان بن حرب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم دعت بطيب، فطلت به ذراعيها وعارضيها، ثم قالت: «**إني كنت عن هذا لغنية لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج؛ فإنها تحد عليه أربعة**

(١) المصدر السابق ص ٣٦.
(٢) السمط الثمين ص ١١٦.

أشهر وعشرًا»[1].

هذه أم حبيبة زوج الرسول ﷺ تلتزم السنة، وتطيع الرسول ﷺ فيما يأمر به، وعاشت عابدة متبتلة، ترجو الآخرة، وتطلب رضوان الله ورحمته، وتعد العدة لذلك.

تقول عن نفسها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى اثنتي عشرة ركعة في يومه وليلته بني له بيت في الجنة**»[2].

قالت: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

وأحست أم حبيبة أن أجلها قد اقترب وأن أيامها - تكاد تكون معدودة - فطلبت السيدة عائشة -رضي الله عنها- وقالت لها:

«قد كان يكون بيننا ما بين الضرائر، فغفر الله لي ولكِ ما كان من ذلك».

فقالت عائشة: «غفر الله لكِ ذلك كله، وتجاوز، وحللك من ذلك»[3].

فقالت لها: سررتيني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك.

وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهم جميعًا.

* * *

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٠٠) ورواه الإمام البخاري، ومسلم.
(٢) السمط الثمين ص ١١٦.
(٣) السمط الثمين: محب الدين الطبري ص ١١٦.

تذييل

الزوج عند كثير من النساء هو أعز الرجال، وأغلى الأبطال، هو البلسم الشافي للجروح، وهو البسمة الحلوة التي تجمل الحياة، وهو أبو العيال، وحامي الديار، والنغمة الحلوة التي تعزفها أوتار الوجود.

ومن أجل ذلك قد تنسى المرأة أقرب الناس إليها من أجل زوجها، وتحارب الأهل والخلان بغية إرضاء رجلها.

لقد تزوَّجت زينب بنت الرسول ﷺ أبا العاص بن الربيع، وعاشت معه أيامًا مليئة بالمودة والرحمة، ومكللة بالحب والقرب، ولكن أبا العاص بقي على كفره.

وعندما أذنت قريش لحرب محمد ﷺ لم يستطع أن يتخلف عن الحرب والقتال، ودارت الدائرة على قريش، ولم يقتل أبو العاص مع مقتلة قريش، وبقي في أيدي المسلمين أسيرًا.

وعندما أمر الرسول ﷺ أصحابه في أخذ الفدية، وإطلاق سراح الأسرى، قامت زينب ابنته بإرسال فدية زوجها مالاً، وبعثت مع المال قلادة لها، كانت أمها خديجة أهدتها لها عند زفافها.

وعندما وقع نظر الرسول ﷺ على القلادة عرفها- فرَّق قلبه لابنته؛ لأنه يعلم أن هذه القلادة أغلى شيء لديها، إنها هدية أمها خديجة، وأحب الناس لرسول الله، إنها الذكرى الباقية من الأم الراحلة.

ولكن كل شيء يهون في سبيل أن يعود إليها رجلها.

وكأن هذه المعاني دارت بخلد الرسول ﷺ فقال لأصحابه:

«**إن رأيتم أن تطلقوا إليها أسيرها وتردوا عيها مالها؛ فافعلوا**»[1] فقالوا: نعم، يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها قلادتها وعاد إليها زوجها بمكة، ولكنها لم

(١) سيرة ابن هشام محيى الدين عبد الحميد (٢/ ٢٩٧).

رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها قلادتها وعاد إليها زوجها بمكة، ولكنها لم تعد إليه؛ لأنها مسلمة وهو لا يزال على كفره، ويأبى الإسلام ذلك.

وحملت زينب – رضي الله عنها – إلى المدينة، تجتر أحزانها، وتدعو ربها أن يهدي زوجها، ويشرح صدره بالإيمان، ليقترب من الإسلام.

ومرت الأيام وكرت الليالي .. حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص إلى الشام متاجرًا، وكان رجلاً مأمونًا، ومعه أمواله وأموال رجال من قريش، فلما فرغ من تجارته، وأقبل راجعًا لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وفرَّ هاربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته عندما علمت أنه جاء في طلب ماله.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح نادت زينب من صفة النساء: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: «**أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟**».

قالوا: نعم.

قال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم»، إنه يجير على المسلمين أدناهم، ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: «**أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك؛ فإنك لا تحلين له**»، ثم بعث رسول الله ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال:

«إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً؛ فإن تحسنوا وتردوا الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به».

قالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه؛ ففعلوا.

ثم احتمل إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده، ورسوله، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ، وردت إليه زينب - رضوان الله عليهما[1].

لماذا فعلت زينب ذلك مع زوجها من دفع فديته أولاً وأجارته ثانيًا؛ لأنه الزوج الغالي الذي عاشت معه أيام عمرها، إنه الأب الحنون لأطفالها وأولادها، إنه الإنسان الذي أفضت إليه بذات نفسها، وأشركته في حياتها، وتعرت أمامه فسترها.

وتعرف على أسرارها فكتمها لوم يبح بها، وكان لها لباسًا وقاها تقلبات الأيام ومفاجآت الليالي، إنه الزوج الذي قدم حبه وقلبه ووضع بين يديها ماله وكده، وجعلها شريكة له في عزه ومجده، إنه النصف القوي الذي يجعل الحياة جميلة وهادئة.

إن هذه المعاني العميقة والخيالات البهيجة التي تكون بين المرأة وزوجها أشار إليها رسول الله ﷺ كما يحدثنا ابن هشام.

أن رسول الله ﷺ انصرف راجعًا إلى المدينة بعد غزوة أحد، فلقيته حمنة بنت جحش زوجة مصعب بن عمير الذي قتل في تلك الغزوة.

فنعى لها أخاها عبد الله بن جحش، فقالت: إنا لله، وإنا إليه راجعون امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[2].

ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت. ثم نعى لها

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).
(٢) سورة البقرة: ١٥٥، ١٥٦.

زوجها مصعب فصاحت وولولت.

فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان»[1]، لقد ثبتت وصبرت عندما نعى لها أخاها، وثبتت وصبرت عندما نعى لها خالها.

أما زوجها فلم تستطع الصبر، ولم تقدر على تحكم إرادتها .. وكيف تصبر، وليس بعد فقده إلا الضياع الذي لا يقف عند حد، والهم الذي لا يمنعه مانع، والشقاء الذي لا يجده مرفأ.

ومن قبل زينب – رضوان الله عليها – كانت رملة بنت أبي سفيان التي خرجت منها مهاجرة إلى الحبشة – هاجرت بدينها، وفي رفقة زوجها، وقالت: لمن أراد أن يمنعها من الخروج: إما أن أتبعه حيث سار وأرافقه أينما حل .. وإما سأودع هذه الحياة غير آسفة عليها، وفي أرض الحبشة وبعيدًا عن الأهل والأقارب فقدت زوجها وتذرعت بالصبر حتى تزوجها رسول الله ﷺ، وحملت إلى المدينة.. وفي المدينة عاشت لزوجها وبيتها.

ومرت الأيام سريعة، وكرت الليالي هنيئة، حتى كان يوم – شاهدت أباها يقف أمامها، وأزهلتها المفاجأة عندما لم تدر ماذا تقول .. أو ماذا تفعل؟

حتى لقد همَّ والدها بالجلوس، عندما لم تدعه لذلك، وهنا عادت إليها نفسها، ورجعت إليها طبيعتها، طبيعة الإسلام الصافية، والعقيدة الصادقة التي لا تجامل، ولا تحابي حتى ولو مع أقرب المقربين إليها، لقد جلس والدها على بساط زوجها، وهذا البساط طاهر؛ لأن صاحبه من المتطهرين... المتطهرين بالماء من خبث الحياة، والمتطهرين بكلمة التوحيد من أرجاس الكفر، وهو في نفسه طاهر؛ لأنه يحمل رسالة ربه، ويتلقى أوامره عن طريق جبريل الأمين عليه السلام.

ووالدها لا يزال يعيش في كفره – وتعنته – لا يتطهر، لأن الأصنام لا تأمره

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٥٠).

بذلك، ولا يصفو قلبه من الضلال؛ لأن أرجاس الكفر تخيم عليه، فما أن كان منها إلا أن شدت البساط من تحته، وتعجب والدها من فعلها، وتساءل أي شيء فعله الإسلام في داخل هذه المخلوقة حتى تتنكر لأبيها، وتحول بينه وبين الفراش؟

فقال: أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش أم رغبة بالفراش عني؟ وجاء جوابها: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك؛ فلم أحب أن تجلس عليه.

قال والألم يفري كبده: لقد أصابك يا بنية بعدي شر. وانصرف غاضبًا.

وعلى هامش التاريخ كانت طروادة تلك العاصمة القديمة – التي حاصرتها جيوش «أسبرطة» السبعة، وسدت على أهلها الطرق، وأغلقت عليها المنافذ حتى ضج بداخلها الجيش المحاصر، وضاق ذرعًا بصلابتها، وتحملها الجيش المغير – وأخيرًا فتحت عنوة.

وأصدر القائد المنتصر أن تخلى المدينة من سكانها. على أن تدَّق أعناق الرجال بالسيوف على بابها.

تخرج النساء من المدينة يحملن ما يستطعن حمله من أغلى ما لديهن، وعندما فتحت أبواب المدينة، كم كانت دهشة القائد عندما شاهد النسوة يخرجن، وكل منهن تحمل رجلها فوق كتفها، وحاججهم القائد فتغلبن عليه.

لقد كان أمره إليهن أن يحملن ما يستطعن حمله من أغلى ما لديهن.

وهل هناك أغلى من الرجال؟

ودمعت عينا القائد.. وانفطر قلبه لهذا الوفاء الكبير وعفا عن الرجال لتنعم بهم الزوجات.

* * *



سهلة بنت ملحان

رضي الله عنها

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «**لا تغالوا في صداق النساء؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ، ما أصدق امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشر أوقية، وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، ويقول: قد كلفت إليك علق القربة أو عرق القربة**». [رواه ابن ماجه في سننه].

سهلة بنت ملحان مهرها الإسلام

فوق الصحراء الممتدة الصافية عرفتها الحياة طفلة وشابة، وعلى ثراها الطيب الطاهر الذي خرج هؤلاء الرجال المغاوير الذي حملوا دين الله، وانداحوا به في أربعة أركان الأرض كانت حياتها وآمالها.

من هذه الفتاة التي سجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور؟ إنها سهلة بنت ملحان.

فتاة الصحراء، وربيبة البادية، والتي عرفت بين لداتها وأترابها بأنها صبوحة الوجه، صافية القلب، نقية السريرة، سليمة الخلقة، جميلة العينين.

ولقد كانت دائمًا موضع اهتمام الشباب، ومحط آمالهم؛ لتكون زوجة صالحة وأمًّا حانية، وزهرة فواحة بالعطر في منزلها السعيد، ولكن مالك بن النضر فارس القبيلة وزينة شبابها ظفر بها في الجاهلية، فولدت له أنس بن مالك.. نعم: أنس بن مالك – الذي قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات فما قال لي: أف قط، ولا لشيء صنعته لما صنعته، ولا لشيء تركته لما تركته، بل كان يقول: «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**».

فلما جاء الإسلام سمعت سهلة بدعوته، فاتجهت إلى رسول الله ﷺ، واستمعت إلى حديثه، وإلى الوحي الذي جاء به جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[1].

فأسلمت على يدي رسول الله ﷺ، ثم اتجهت إلى بيتها، وجلست تترقب وصول زوجها من مرعاه خارج المدينة، وما كادت الشمس تميل إلى الغروب

(١) سورة النجم: (١، ٤).

حتى شاهدت زوجها يهرول بالقدوم إلى بيته تسبقه إبله ومواشيه.

فعادت إلى داخل بيتها، ولبست أجمل ثيابها، وتطيبت له، وقدمت له طعامه وشرابه، وجلست بجواره تداعبه وتلاطفه، وتحدثه عن النور الجديد، عن دعوة الإسلام التي جاء بها محمد الأمين صلوات الله عليه وسلامه.

وسألها زوجها إلى أي شيء يدعو هذا الدين الجديد؟ قالت: يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، قال: هل وعيت شيئًا من كلامه؟ قالت: إنه ينزل عليه وحيًا من ربه يسمى قرآنًا، ومما سمعته أذناي ووعاه قلبي قول الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ووصفت له لقاءها برسول الله ﷺ في ذلك اليوم، ودعته أن يذهب إليه ليسلم على يده، ولكن مالكًا كان في شغل شاغل عنها، وعن هذا الدين، فلم يفتح قلبه للدعوة الجديدة، ولم يستجب لرجائها ودموعها، إذن لن تكون له زوجًا، ولن يجمعهما بيت واحد، فانفصلت عنه، ولم يطق زوجها صبرًا على فراقها، فخرج إلى الشام ومات هناك.

ومن هذا التاريخ وهبت سهلة بنت ملحان نفسها للدعوة الجديدة وللنور المشرق، فأخذت تدعو إلى دين الله بلسانها وجنانها وسلاحها.

وسمع أبو طلحة الأنصاري بانفصالها عن مالك بن النضر، فرغب في

(١) سورة الأنعام: ١٥١، ١٥٢.

زواجها فتوجه إليها وكلمها في ذلك، فقالت سهلة: يا أبا طلحة، ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة، لا تصلح لي زوجًا حتى تعلن إسلامك، وتؤمن بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وأرسل رسوله محمدًا بن عبد الله بشيرًا إلى الناس كافةً.

وكأن الرجل لم يفهم ما تريده منه، فقالت مستزيدة: يا أبا طلحة، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي بن فلان؟ قال: بلى، قالت: يا أبا طلحة، أفلا تستحي أن تبعد خشبة من نبات الأرض نجرها هذا الحبشي، وهي لا تنطق فتسمع منها الحكمة، ولا تعي فتسمع منك شكواك إن شكوت، أو تخفف عنك بلواك إن ابتليت، أو تكافئك على عبادتك إن عبدت، ثم تابعت حديثها قائلةً إن أسلمت لم أرد منك من المهر غيره، قال لها أبو طلحة: إنني أعطيك من المهر ما تبغينه من الذهب والفضة، قالت: فإني لا أريد ذهبًا ولا فضة، ولكني أريد منك الإسلام، قال أبو طلحة: حتى أنظر في أمري.

ومرت الأيام وكرت الليالي وأبو طلحة يقلب أمره ويستفتي قلبه، ثم عاد مرة أخرى يطرق باب سهلة قائلاً: من لي بالإسلام يا سهلة؟ فدلته إلى رسول الله ﷺ فانطلق أبو طلحة يريد النبي ﷺ، فلما رآه رسول الله، وهو جالس بين أصحابه قال لهم: «لقد جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه»، فأخبر الرسول ﷺ بما قالت سهلة، فأسلم على يديه، ونطق بالشهادتين، ثم عاد إلى عروسه، وتزوجها على ما اشترطت من مهر.

قال ثابت: «فما بلغنا أن مهرًا كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهرًا».

وعاشت سهلة بنت ملحان مع أبي طلحة كأسعد ما يكون زوجين ترفرف المودة والمحبة على بيتهما الجميل، وولدت سهلة لأبي طلحة غلامًا فكملت سعادتهما، وأخذت أهازيج السعادة وأغاريد المنى تجمل لهما الأحلام، وتقرب

لهما الآمال.

وفي يوم ليس كمثله يوم مرض هذا الغلام، وأخذت سهلة تمرضه وتطببه، ولكن بلغ الكتاب أجله، ففارقت روحه جسده، وتجملت سهلة بالصبر، واعتصمت بالإيمان، واحتسبت ابنها في سبيل الله، ثم قالت لأهلها: لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتى أحدثه أنا.

فلما جاء زوجها قربت له عشاءه وشرابه فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع له قبل ذلك، ولبست له أجمل ثيابها، فلما شبع وروى وقع بها حتى إذا تأكدت من شبعه وريه وقضاء حاجته منها، قالت سهلة: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن أهل بيت أعاروا عاريتهم أهل بيت آخرين فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يحبسوا عاريتهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك، فغضب أبو طلحة غضبًا شديدًا، ثم قال: تركتيني حتى تلطخت بما تلطخت به، ثم تحدثيني بموت ابني؟ وانطلق الرجل إلى رسول لله ﷺ فقال: يا نبي الله، ألم تر إلى سهلة بنت ملحان صنعت كذا وكذا.

فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**».

يقول راوي الحديث: فلقد شاهدت لها عشرة رجال كلهم حمل السيف، وقاتل في سبيل الله، وكان الرسول ﷺ يزورها في بيتها كثيرًا، ويصلي عندها تطوعًا، ويعلمها الدعاء والاستغفار، ولم يكن الرسول ﷺ يدخل بيت من بيوت المدينة غير بيتها وبيوت أزواجه رضوان الله عليهم، فقيل في ذلك ... فقال: «**إني أرحمها قتل أخوها معي**».

وعندما قدمت للرسول ﷺ ابنها أنس ربت ﷺ على كتفه، ومسح على رأسه، وقال: «**اللهم ارزقه مالاً وولدًا وبارك له**».

قال أنس: «**فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وولدًا**».

وليس هذا كله ما يحفظه التاريخ عن سهله بنت ملحان أو أم سليم كما كانت تدعى، ولكنها كانت دائمًا مع الرسول ﷺ في سلمة وحربه، وفي غزواته وتنقلاته ما تخلفت عن غزوة قط كما تقول عن نفسها، وكانت مهمتها هي وأخواتها المؤمنات في تلك الغزوات ليست سهلة دائمًا؛ فهي تسقي الجرحى، وتحمل قرب الماء للمقاتلين، وتضمد الجروح، وتستعمل خنجرها المعكوف إن كان هناك ما يدعو لذلك.

يقول أنس بن مالك: «لما كان يوم أحد والهول يحيط بالمسلمين من كل جانب رأيت عائشة أم المؤمنين وأم سليم، وأنهما مشمرتان أرى خدم سوقهما، ينقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها في أفواه القوم، وترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغن في أفواه القوم».

وتمر الأيام وتكر الليالي ويتجه عشرة آلاف مقاتل إلى الكعبة بيت الله الحرام لتطهيرها من الشرك والكفر، وأصنام الجاهلية، وتم الفتح الأكبر، وتقف أم سليم تردد مع الأخوة المؤمنين خلف الرسول ﷺ، وهم يطهرون الكعبة، ويحطمون آخر معاقل الكفر والطغيان: «لا إله إلا الله، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله»، ويتجه الرسول ﷺ إلى غزوة حنين بجيش لا يبلغ مداه البصر، واغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم: «لن نهزم اليوم عن قلة».

وكان لا بدَّ من درس لهذه الفئة المؤمنة التي تجاهلت أن النصر لن يكون بالقلة ولا بالكثرة، ولكن النصر من عند الله، ففروا هاربين، وطارت قلوبهم شعاعًا.

وثبتت فئة قليلة من المؤمنين حول رسولهم الكريم يدافعون ويقاتلون، فأين أم سليم في هذه الهول الذي جعل الأبطال ولوا مدبرين؟ إنها بجوار الرسول ﷺ تدافع وتقاتل، تنافح وتجالد أعداء الله، وأعداء دينه، ويبصرها زوجها أبو طلحة

الأنصاري وهي تتحفز بخنجرها، فيقول لها: «ما تصنعين بهذا يا أم سليم؟» قالت: أريد إن دنا أحد من رسول الله ﷺ بجعت بطنه، فذكر ذلك أبو طلحة لرسول الله ﷺ فقال: «يا أم سليم، إن الله تعالى قد كفى وأحسن».

إن سهلة بنت ملحان أو أم سليم، كما كان يخاطبها رسول الله ﷺ، نسيج وحده من النساء المؤمنات في مدرسة الإسلام.

فأين حفيدات أم سليم؟! أين التي تقبل الإسلام والإيمان مهرًا لها؟! أين التي ترفض الذهب لتقبل التقوى؟! أين التي ترفض الزينة وتقبل القيمة؟! أين فتياتنا المسلمات اللاتي يتمذهبن بالإسلام، ويتأدبن بأدب النبوة، ويطعن الرسول في قوله: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه؛ فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»؟!

إني ألمحهن على الأفق مقبلات يخففن الأعباء، ويرضين الأزواج، ويهدهدن الأطفال، ويصنعن الرجال في خير أمة أخرجت للناس.

* * *



أم كلثوم بنت عقبة

رضي الله عنها

أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها

مؤمنة قانتة، وزوجة صابرة، وأمٌّ بارة بأبنائها.. عرف الإيمان طريقه إلى قلبها مبكرًا فعاشت له.

ورأت الأوثان لا تنفع ولا تضر فكفرت بها.

وشاهدتها تزحم جنبات الكعبة، فسخرت من عقول سدنتها وعبادها.

وضاقت عليها مكة بوديانها ففرت إلى ربها، وهاجرت إلى يثرب، مدينة الرسول ﷺ.

والدها: عقبة بن أبي معيط أحد الذين كان لهم دور كبير في الصدِّ عن دين الله، وتعذيب المستضعفين، وإيذاء الرسول ﷺ بالقول والفعل.

حتى أراد الله ووقع عقبة أسيرًا في أيدي المسلمين في غزوة بدر الكبرى، فأمر الرسول ﷺ بقتله، وقتل جماعة كان لهم دور في إخراج الفئة المؤمنة من ديارها، والاستيلاء على أموالهم وديارهم.

فقال عقبة: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟

قال: «نعم، لأنك يهودي من أصل صفورية».

ثم التفت الرسول ﷺ، وقال: «**أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي، وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستخرجان**»[1].

وأمها: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب.

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة – تحقيق ثروت عكاشة ص ٣١٨، ٣١٩.

وأخوها: الوليد بن عقبة الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[١].

كانت تعيش في مكة، وشاهدت نور الإيمان عندما أوحي إلى الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾[٢].

فأسلمت وحسن إسلامها.. وكانت تستمع إلى كلمات الوحي من أفواه الفئة المؤمنة، واستمرت على ذلك حتى أذن الله بالهجرة إلى رسوله ﷺ وفر المسلمون من مكة، واشتاقت أذناها إلى كلمات الكتاب العزيز، وظمأت روحها إلى رؤية الرسول ﷺ فقررت الهجرة إلى يثرب، وفي ليلة من الليالي المقمرة أحست بانشغال أهلها عنها – فركبت راحلتها ميممة شطر معقل الإيمان، وفي الطريق التقت برجل من خزاعة المدينة، فرافقته حتى وصلت إلى مأمنها.

وعلم أهلها بهجرتها، فخرج في إثرها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة فقدما المدينة من الغد يوم قدمت.

فقالا: يا محمد أوفي بشرطنا، وما عاهدتنا عليه.

وقالت أم كلثوم: يا رسول الله، أنا امرأة وحال النساء ما قد علمت.

فقال رسول الله ﷺ للوليد وعمارة ابني عقبة: «**قد نقض الله العهد في النساء بما قد علمتماه فانصرفا**»[٣].

وفي المدينة تقدم لخطبتها الزبير بن العوام، وزيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص[٤].

---

(١) سورة الحجرات: ٦.
(٢) سورة الأحزاب: ٤٥.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٩٥٤).
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٢٣).

كيف تختار بين الخطاب الأربعة؟ وكيف تفاضل بينهم؟

أتختار زيدًا الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**يا زيد أنت مولاي ومني، وأحب القوم إليَّ؟!**».

أم تختار الزبير بن العوام؛ لأنه فارس، ولبى دعوة الرسول ﷺ عندما قال: «**من يتأتيني بخبر القوم؟!**».

فقال الزبير: أنا.

فقال: «من يأتيني بخبر القوم؟».

فقال الزبير: أنا.

فقال: «من يأتيني بخبر القوم؟».

فقال الزبير: أنا.

فقال النبي ﷺ: «**إن لكل نبي حواريًا، وإن حواريي الزبير**»[1].

أم تختار عبد الرحمن بن عوف الرجل المكافح الذي يعرف أساليب التجارة، وأبى أن يكون عالة على أحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة؟!

فقد روي، أن رسول الله ﷺ آخى بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد:

«أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك».

فقال عبد الرحمن بن عوف: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فدلوه على السوق، فاشترى وباع فربح حتى قال: فلقد رأيتني ولو

(١) الطبقات (٣/١٠٢).

رفعت حجرًا رجوت أن أصيب تحته ذهبًا أو فضة»[1].

أم تختار عمرو بن العاص الذي قال فيه رسول الله ﷺ عندما قدم المدينة هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة مسلمين: «**قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها؟!**»[2].

واحتارت ماذا تفعل؟

فاستشارت أخاها لأمها عثمان بن عفان، فأشار عليها أن تأتي النبي ﷺ، وعندما عرضت عليه أمرها. أشار عليها رسول الله ﷺ بزيد بن حارثة فتزوجته، وعاشت معه فترة طويلة، وولدت له خلالها زيد بن زيد ورقية.

فهلك زيد وهو صغير، وماتت رقية في حجر عثمان؛ فطلقها زيد.

وما كادت تنتهي عدتها حتى تقدم لخطبتها الزبير بن العوام ﷺ فولدت له زينب.

وعاشت له ولابنتها، ولكن سفينة الزواج كانت تتقاذفها ريح هوج، وكان يقال بأن الزبير بن العوام كانت فيه شدة على النساء، فكانت تتحمله على مضض، وتترضاه فلا يرضى.

حتى برح بها فطلبت منه الطلاق فرفض، فألحت عليه، فكان يأبى، وفي يوم من الأيام وأوشكت أن تضع حملها ألحت عليه، وهو يتوضأ للصلاة فطلقها تطليقة، ثم خرجت فوضعت حملها.

فأدركه إنسان من أهل بيته فأخبره أنها قد وضعت.

فقال: خدعتني خدعها الله.

ثم أتى رسول لله ﷺ فذكر ذلك له؛ فقال: «سبق فيها كتاب الله فاخطبها».

---

(١) الطبقات (٣/ ١٠٢).

(٢) سيرة ابن هشام.

قال: لا ترجع إليَّ أبدًا.

وعلم عبد الرحمن بن عوف بها فتقدم إليها وتزوجها، وعاشت معه عيشة هانئة راضية .. وولدت له إبراهيم وحميدًا.

وكان ابن عوف من الأغنياء الموسرين، وكان كريمًا مفضالاً، قال له رسول الله ﷺ: «يا ابن عوف، إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفًا، فاقرض الله يطلق لك قدميك».

قال ابن عوف: وما الذي أقرض الله يا رسول الله؟

قال: «تبدأ بما أمسيت فيه».

قال: أمن كله أجمع يا رسول الله؟

قال: «نعم».

قال: فخرج ابن عوف، وهو يهم بذلك فأرسل إليه رسول الله ﷺ فقال:

«إن جبريل عليه السلام قال: مُرْ ابن عوف فليضيف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، ويبدأ بمن يعول، فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه»[1].

فكان لهذا .. يعطي من ماله .. ويسر على أولاده، ويكرم زوجاته، وينفق مما أعطاه الله.

واستمرت أم كلثوم زوجة لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حتى وافاه أجله.

فتقدم لزواجها عمرو بن العاص رضي الله عنه فعاشت معه ما عاشت حتى وافاها أجلها -رحمها الله، واسكنها فسيح جناته؛ فهي المهاجرة الفانتة الملبية لنداء الله - عندما دعا الداعي إليه.

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٣ ص ١٣١، ١٣٢.

تذييل

أم كلثوم مسلمة مهاجرة، وزوجة صالحة، لها خبرة ودراية بشئون الحياة الزوجية، ومعرفة كاملة بمعاملة الزوج، فلقد كان لها أكثر من تجربة في الحياة الأسرية.

فلو أرادت إحدى الفتيات المسلمات أن تستعين بخبرتها في الحياة، وبتجربتها في معاملة زوجها - حتى تقام حياة أسرية سعيدة؛ فماذا تراها قائلة لها، إننا نتصور أن تبدأ حديثها معها بقولها:

ابنتي المسلمة: إن العلاقة بينك وبين زوجك يجب أن تقوم على الحبِّ والمودة، بحيث يأتلف بها قلباكما، وتتصل بها روحاكما، وحتى يصبح كلاكما موضع سر الآخر وشريكه في البؤس والرخاء.. ويجب أن يكون بينك وبين زوجك من الملازمة والاتصال الأبدي ما يكون بين الجسد والثوب؛ فأنت وكل زوجة، موضع الراحة والسكينة لأزواجكن، ولا أتصور لكن وظيفة فطرية إلا أن تهيء كل منكن لزوجها أمنه وسكينته وراحته.

وأول نصيحة أقدمها لك:

«أن تطيعي زوجكِ فيما يأمركِ به سرًّا وعلانية؛ لأن الطاعة مجلبة للهناء والرضا، والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء».

وطاعة الزوج أمر من الرسول ﷺ عندما قال لأم سلمة:

«إذا أدت المرأة فريضة ربها، وأطاعت زوجها، وحركت المغزل كانت كأنها تسبح الله».

وقال ﷺ: «جهاد المرأة حسن التبعل»، أي: طاعة الزوج والتزين له.

وقيل له: يا رسول الله، أي النساء أفضل؟

فقال ﷺ: «التي تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر».

وطاعة المرأة لزوجها هو دعامة الأسرة المتماسكة التي يكون فيها الوالدان قدوة لأولادهما، فينشئوا على طاعة الوالدين لما يرون في بر الوالدين وطاعتهما النموذج الكريم للتطاوع وعدم التخالف.

وكم يسيء إلى الأولاد موقف الأم الناشز من أمر الوالد ويثير فيهم النفور والتمزق، وربما دفع إلى عدم احترام الوالدين على الكبر، مما يرون في الوالدين من خلاف ونزاع وشقاق.

ولكي تعرفي ما في طاعة الزوج من إرضاء الله وإرضاء للرسول ﷺ وإقامة دعائم البيت على المحبة والولاء.. أضع بين يديك هذه الواقعة التي حدثت في عهد الرسول عليه السلام.

رجع معاذ بن جبل من الشام، وعندما رأى رسول الله ﷺ سجد بين يديه. فقال ﷺ: «ما هذا؟».

قال: يا رسول الله، قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك.

قال: «فلا تفعل، فإني لو أمرت شيئًا أن يسجد لشيء؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، ثم قال ﷺ:

«والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها».

ثانيًا يا بنيتي:

لا تغادري بيت زوجك إلا بأمره، ولا تذهبي إلى أهلك إلا بإذنه، لأن خروجك من بيتك إلى أي مكان بغير علم زوجك.. فيه إشارة إلى عدم الاهتمام

به أو المحافظة عليه، ويذكرني موقفك هذا بالمرأة التي أرادت أن تتزوج، فجاءت إلى الرسول ﷺ وقالت: يا رسول ما حق الزوج؟

إنها أرادت أن تعرف حقوق زوجها - قبل الارتباط به - حتى تؤديها وتعود نفسها على القيام بها؛ فقال:

«إنَّ من حقِّ الزوج على الزوجة إذا أرادها وراودها عن نفسها، وهي على ظهر بعير لا تمنعه، ومن حقه ألا تعطي شيئًا من بيته إلا بإذنه؛ فإن فعلت كان الوزر عليها والأجر له، ومن حقه ألا تصوم تطوعًا إلا بإذنه؛ فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب».

إنَّ خروجها يهدد العش الآمن الدافئ المستقر الراضي بالآلام والمخاوف والقلق، وهذه هي معاول الهدم للسعادة الأسرية.

ثالثًا يا بنيتي:

أرى أن تهتمي بتربية أولادك، وتعوديهم على اتباع الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، ولا شك أن زوجك يضرب في فجاج الأرض؛ ليهيء لكِ ولأولادكما حياة هانئة مستقرة .. فعليك أن تكوني راعية في بيتكِ، ومسئولة عن رعيتكِ.

وقد امتدح النبي ﷺ نساء قريش معللاً فضلهن على غيرهن .. بأنهن أحناهن على ولد.

والمرأة التي تترك أولادها للخدم أو الشارع إنما ترمي في الهاوية بمستقبلها ومستقبل أبنائها.

إنَّ الطفل - يا بنيتي - يتعلم من أمه كل شيء، والأم التي تملأ البيت

صراخًا إنما تصب في هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها في الحديث.

والأم الصادقة – والتي تنكر ذاتها من أجل الغير – تورث أبناءها هذه الصفة التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

والأم التي تحترم زوجها، وتقدر أهل الفضيلة والدين، وتتحاشى الرذيلة، وتنفر منها ومن صحبة أهليها، تورث هذه العادة أبناءها وبناتها؛ فيشبون على الفضيلة نافرين من الرذيلة.

والأم التي تحرص على النظافة في نفسها وبيتها كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه، إنما تزرع هذه العادة في أبنائها؛ فلا يستقلون أعباء النظافة والنظام؛ لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة، ولا يهنأ لهم مقام إلا إذا نهضوا إلى النظافة والنظام.

ثم لا تنسي أن تعتني بمرأى زوجك ومسمعه .. وذلك بأن يرى بيتكِ نظيفًا مرتبًا وأن يرى النظام والذوق في متاعه .. وأن يرى في أولاده التربية والأدب.

رابعًا يا بنيتي:

أن تقومي بخدمة بيتك؛ لأنه واجب عليك، ولا شكٌّ أن العمل منك في داخل البيت أول دليل على تعاون الأسرة وتماسكها، ولتعلمي أنك لست أول واحدة تقوم بخدمة بيتها، ولن تكوني الأخيرة، يستوي في ذلك الغنية والفقيرة.

وتعالي معًا نستمع إلى قصة أسماء بنت أبي بكر الصديق – رضي الله عنها – وهي تتحدث عن خدمتها في بيتها، قالت:

«تزوجني الزبير، وما له في الأرض من مال غير فرسه وناقته، فكنت أعلف فرسه وأسوسه، وأدق النوى لناقته، واستقى الماء، وأخيط الدلو، وأعجن،

وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ - حتى أرسل إليَّ أبو بكر بخادم، فكان يكفيني سياسة الفرس، فكأنما اعتقني، فجئت يومًا والنوى على رأسي فدعاني رسول الله ﷺ لأركب خلفه على ناقته - فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته - وكان أغير الناس - فعرف رسول ﷺ الله أني استحييت فلم يثقل عليَّ».

وسأدلكم يا بنيتي على أم شريكٍ؛ فهي امرأة وصفها القرآن بأنها مؤمنة - لتكمل معكِ - واجبات الزوجة نحو بيتها وزوجها وأولادها .. فإلى أم شريك يا بنيتي.

* * *



الفهارس

- فهارس آيات القرآن الكريم

فهرس آيات القرآن الكريم

م	الآية	الرقم	السورة	رقم الصفحة
١	قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.	٥٨- ٥٩	النحل	٣
٢	قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾.	٨ – ٩	التكوير	٤
٣	قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.	١	النساء	٦
٤	قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾.	١٩	النساء	٧
٥	قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.	٧	النساء	٧
٦	قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.	٣٢	النساء	٣٢
٧	قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.	٢١	الروم	٢١
٨	قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.	النساء	٣٥	١٢
٩	قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.	النساء	١٣٠	١٢

م	الآية	الرقم	السورة	رقم الصفحة
١٠	قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.	النساء	١٩	١٢
١١	قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾.	النور	٣٢	١٣
١٢	قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.	الرعد	٣٨	١٣
١٣	قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.	الفرقان	٧٤	١٤
١٤	قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.	الأنفال	٤٦	٢٦
١٥	قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾.	آل عمران	٨١	٢٦
١٦	قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.	العلق	١ – ٥	٢٨
١٧	قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.	البقرة	١٨٥	٣١
١٨	قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.	القدر كاملة	١ – ٥	٣١
١٩	قال تعالى: ﴿حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِّنْ	الدخان	١ – ٣	٣٢

م	الآية	الرقم	السورة	رقم الصفحة
	عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.			
٢٠	قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.	الضحى	١ – ٢	٣٣
٢١	قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.	الضحى	٥	٣٣
٢٢	قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾.	الضحى	٦ – ٨	٣٣
٢٣	قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.	البقرة	٢١٦	٣٤
٢٤	قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.	البقرة	٢٠١	٣٧
٢٥	قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.	البقرة	١٨٧	٣٨
٢٦	قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾.	النساء	٣٤	٣٨
٢٧	قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.	النساء	٤	٦٠
٢٨	قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.	البقرة	١٥٨	٦١
٢٩	قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.	الفرقان	٥٤	٩٤
٣٠	قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.	الرعد	٣٩	٩٤
٣١	قال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.	الأنعام	٥٢	٩٦

م	الآية	الرقم	السورة	رقم الصفحة
٣٢	قال تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.	الأنفال	٢٨	١٠٤
٣٣	قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا﴾.	آل عمران	١٤٤	١٠٧
٣٤	قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾.	الأنبياء	٣٤	١٠٨
٣٥	قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.	المائدة	٣	١٠٨
٣٦	قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.	المائدة	٥٠	١٠٩
٣٧	قال تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.	مريم	٦٠	١١٠
٣٨	قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾.	النمل	١٦	١١٠
٣٩	قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.	الأنفال	٤١	١٢١
٤٠	قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾.	الأحزاب	٣٦	١٢٤
٤١	قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ﴾.	الأحزاب	٣٧	١٢٥

فهرس الأحاديث النبوية

م	الحديث	رقم الصفحة
١	قال الرسول ﷺ: أنا ابن العوانك من سليم.	٤
٢	قال الرسول ﷺ: «لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر).	٩
٣	قال الرسول ﷺ: ثلاثة كلهم حق على الله عونه: المجاهد في سبيل الله. والناكح يريد العفاف، والكاتب يريد الأداء.	١١
٤	قال الرسول ﷺ: من وقاه الله شر اثنين دخل الجنة - ما بين لحيته وما بين رجليه.	١٤
٥	قال الرسول ﷺ: من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الثاني.	١٣
٦	قال الرسول ﷺ: تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة.	١٤
٧	قال الرسول ﷺ: إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.	١٥
٨	قال الرسول ﷺ: وكلى بالركن اليماني في الكعبة: سبعون ملكًا فمن قال: اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. قالوا: آمين.	١٥
٩	قال الرسول ﷺ: أمرت أن أبشر خديجة بيت من قصب لا خصب فيه ولا نصب	٣٢
١٠	قال الرسول ﷺ: إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة والمراة تفضي إليه ثم ينشر سرها».	٣٩
١١	قال أبو هريرة - صلى بنا رسول الله ﷺ- فلما سلم أقبل علينا بوجهه قال مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ثم يخرج فيحدث فيقول فعلت بأهلي كذا..؟ فسكتوا فأقبل على النساء فقال: هل منكن من تحدث..؟ فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله - ﷺ ويسمع كلامها فقالت: إنهم يتحدثون وإنهم ليتحدثن. فقال -	٣٩

	ﷺ: هل تدرون ما مثل من فعل ذلك..؟ مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبة بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه».	
١٢	قال الرسول ﷺ: ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة ما عكم – أي ما بكت حين ذكرته له وما تردد فيه».	٤٣
١٣	قال الرسول ﷺ:إن الغيران لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه.	٥٩
١٤	قال الرسول ﷺ: لعلى بن أبي طالب – ﷺ: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا بنى بعدي».	٨٩
١٥	قال الرسول ﷺ: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم: اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها وإني أتخوف أن تفتن في دينها».	١٠٠
١٦	قال الرسول ﷺ: يثنى على صهره أبا العاص: حدثني فصدقني ووعدني فأوفى لي وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حرامًا. ولكن والله لا يجمع بنت رسول الله – وبنت عدو الله بيت واحد أبدًا».	١٠٠
١٧	قال الرسول ﷺ: «هذان إبناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبها فأحبهما وأحب من يحبهما».	١٠٣
١٨	قال الرسول ﷺ: حسين مني وأنا من حسين. أحب الله من أحب حسينًا».	١٠٣
١٩	قال الرسول ﷺ: رضاء فاطمة من رضاني وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني».	١١٢
٢٠	قالت امرأة: يا رسول الله: إنا كلٌ على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم..؟ فقال الرسول– ﷺ: «الرطب تأكلنه وتهدينه».	١١٦ ١١٧
٢١	قال الرسول ﷺ: من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من فوق سبع سماوات».	١٢٦
٢٢	يقول الرسول – ﷺ: وإذا أحدكم فليستتر ولا يتجردان تجرد العيرين.	١٣٣
٢٣	قال الرسول ﷺ: إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند	١٣٣

	الغائط وحين يقضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم».	
٢٤	قال الرسول ﷺ: نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنحة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها».	١٣٤
٢٥	قال عمر بن الخطاب - ﷺ يا رسول الله ألا تعجب من عثمان إني عرضت عليه حفصة فأعرض عني..؟ فقال الرسول ﷺ: يا عمر قد زوج الله عثمان خيرًا من ابنتك وزوج ابنتك خيرًا من عثمان».	١٤٢
٢٦	قال الرسول ﷺ: إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة والمرأة تفضي إلى الرجل ثم ينشر سرهما».	١٥٧
٢٧	قال الرسول ﷺ: «إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى يوم القيامة، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس؛ فليبلغ شاهدكم غائبكم، ولا يحل لنا من غنائمها شيء».	١٦٩
٢٨	قال الرسول ﷺ: «لا يحل لإمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا».	١٧٠

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊